مكتبة الأسرة

٢٠٠٥

طرح البحر

قصص

يوسف القعيد

الفهرس

الفهرس	٣
التصدير	٤
طرح البحر	٧
قراءةفي عيني رحمة	١١
النومفي الظلال	٧٢
الإحتضار فى ليل طويل	١٥
لهفة ما بعد الأوان	٥٦
لم ننته بعد	٣٨
الرغبة فى البكاء	٢٠١
ثلاث دمعات	٨١١
القلب ينبوع أحزان	٩٣١
ثلاثطرق لبدء الكلام	٨٥١

التصدير

" يوسف القعيد " هو سارد أحداث الفلاح المصرى، ومؤرخ حواله في إنهزماته وإنكساراته. في إنتصاراته وأفراحه. فى دقائق حياته الصغيرة، ومفرداته التي صاغت أسلوب تفكيره.

حمل على عاتقه هم تطوير الريف المصرى، وتقدم سكانه، من خلال رصده الدائب لكل صغيرة وكبيرة يمر بها الفلاح، في بيته، وفى أرضه، وفى علاقاته بجيرانه، وفى رؤيته لمستقبله.

هو إسم بارز فى جيل الستينات الروائى، ذلك الجيل الذى اكتوى بنار يونيو، وعايش الهزيمة كلها، وهو ابن شرعي للحقبة الناصرية، مؤمن بقضاياها، ومدافع جسور عن إنجازاتها، ومنشد ضالع لتحققاتها الملموسة.

تجربته شديدة الثراء، وعطاءاته الروائية والقصصية تمتد لقرابة أربعين عاماً، قدم فيها عناوين متعددة تشهد على تفرد تجربته، وخصوصية صوته.

ومكتبة الأسرة تقدم لـ" يوسف القعيد " هذا العالم،" ثلاث حكايات" تحت عنوان" طرح البحر"، تمثل نموذجاً دالاً على أبرز سماته الفنية، وأهم موضوعاته التى يعتنى بها.

إنها مجموعة بديعة لكاتب متمرس.

مكتبة الأسرة

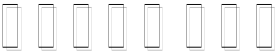

طرح البحر

موسم الفيضان من كل عام.

- البحر إنطلق.

صيحة تحمل الفزع والنذير، يفور البحر بمياة الفيضان، يحتوى الأرض بداخله، يغطى وجهها بمياهه الغامقة السواد، تستجيب الأرض لرغبة البحر، ترتمي تحت قدميه، يأيتها وتأتيه، يتوهان فى غيبوبة، تملأ الجو الأنفاس العقبة. إنها أيام الخصوبة والعطاء يطير طائر الشوق، يحط على الأرض، يغمس رجليه فى طينها الطرى، تهب إليه أنات الطيور المستضعفة، تلتف حوله، تناجه، تلوذ به، لا يفوز أكثرها سوى بسقط المتاع.

لكن كل هذا بعيد عما سيقوله أبطال قصتنا.

نهر النيل، ولنتفق على تسميته بالبحر، كما يسميه الناس. الأرض تخضنه من الجانبين، كأمرأة مكتملة الجسد، فائرة الإنوثة، عذراء شبقة.

الفيضان ليس البداية، فلا يوجد فى القصة سوى حدث واحد نجتره معاً، طول قراءتها. القصص التى بلا بداية، لا يكون لها نهاية أيضاً.

ما سيرونه خلف، عندما يبدأ القصة، مختلف عن كل ما أقوله.

بعد موسم الفيضان، تنخفض المياة، تعود إلى مجراها الطبيعى، تكتسب لونها الأزرق. على البر، المساحات الواسعة التى كانت تغطيها مياه الفيضان، تبقى الأرض، عارية، بعد أن أودعها البحر سره. إن الرجال تطالع عيونهم كل صباح، طرح البحر، طبقات طمى تتحول إلى لون بني تحت أشعة الشمس الذهبية، أعشاب حال لونها الأصلى بفعل المياة، أسماك ميته، جيف حيوانات، نباتات صغيرة غطاها الطمي، ناشراً رائحة الخصوبة والنمانء وسط الحقول.

سأنهى مقدمتي، لكى أعطى شخوصها وليس أبطالها فرصتهم، لكى يثبتوا مصائرهم فى بطون اوراق هذا الزمان.

يجف الطمى، تمتد يد الفلاح وفأسه وسن محراثـه، تقلب باطن الأرض، تودع البذور والأحلام في رحمها، يقول الرجال، في رحابة الحقول. إن طرح البحر كان كريمًا هـذا العام.

يضرب أحدهم كفاً بكف:

- دا آخر طرح بحر.

تشتاق نفوسهم للفعل، يؤجلون رغبتهم حتى يجيـئ الليل. ينتظرون الأرض أن تجود بسرها. النهـار ممطـوط الماسحة، مستطيل الوجه. خلاله تثير الخصوبة الأمانى فـي النفوس. يحلم الجياع ببيادر الغلال. ويحن الأجراء لمساحات من الأرض يمتلكونها، ويتحدثون. فى حديثهم كلمات موشاه بالصحو. وفي حكاياهم رعشات الليل، وسأم أيام الخريف.

ثم يأتى المساء..

فيعود كل منهم إلى منزله..

* * *

هأنذا أنهى مقدمتى، معطياً القلم. والأوراق لهما، خلف ورحمة فلنستمع إلى حديثهما ولنصبر عليهما هذه الفرصة. إنها الأولى، والأخيرة.

* * *

قراءة في عيني رحمة

- ١ -

ولمـان يعرف الناس، فى ناحيتنـا، رجــلاً مشــهوراً بـين زادت الجميع، بأنه أغنى رجال الناحية، ورث ثروة كبيرة، كانت النقود تجلب النقود، فإن الثروة التي آلت إليـه، أكثر من مرة، أصبح ما يملكه لا تحده حدود، عزبة كبيـرة، عندما يتحدث أحد عنها، فلا بد وأن يمتد الحديث إليـه. ولا تذكر إلا مقرونة بأسمه.

لكل أمر غرابته. إنه فى الخامسة والأربعين، زوجته فى الأربعين. منذ عشرين عاماً وهما زوجان. كل ظـروف حياتهما، كانت تؤهلهما لانجاب ألف طفل. غير أن السـنين توالت. جرت مياه كثيرة في البحر. تعكـرت بفعـل طمـي الفيضان، ثم عادت إلى الزرقة. ولم ينجبا. كلما تحدث الناس عن حكايته، تعجبوا من الدنيا، رفعو رءوسهم نحو السماء:

- اللهم لا إعتراض على كلمتك.. ولكن.

يطرحون أسئلة لا يجدون الإجابة عليها. حكايته تضيف إلى ألغاز الحياة، وهى كثيرة، لغزاً جديدًا. الفقراء، فى الناحية، لا يملون الشكوى من كثرة الأولاد، ومن مشاكلهم وما يسيونه من ضيق، يتمنى أكثرهم أن يموت نصف أولاده. كل ما فى الدنيا، تم توزيعه بطريقة خاطئة. إن موضوعه يثير في النفوس إحساسًا بعدم الفهم، وتغيم فى العقول، معان عن الموت والحياة، الغنى والفقر، النجاح والفشل، وتجعلهم يفكرون في إحساسات الجوع والعذاب والحرمان.

هذا ما كان يحدث فى كل مرة.

ذلك هو أنا: خلف أحمد. أقصد الحاج خلف أحمد.

أعيش الآن، فى نفس منزلي، الذى أقيم فيه منذ زواجي. وهو يعد أفخر منزل فى الناحية، فيه كل ما يوحى بالقدم، الفراش القديم، التراب المتراكم بفعل مرور الأيام والليالي، الكراسي التي تكسرت أرجلها، وحال لون فرشها الأصلى. الجدران المغطاة بالسأم، الهواء الراكد فى الصالة. صورة كبيرة، صورة الزفاف. فتاة جميلة، بجوارها شاب نضر، الطرحة البيضاء، الملابس الطويلة، التى تذكرت بأيام

مضت ولن تعود. على الجدار المقابل، آية الكرسي فى إطار مذهب، على الجدار الجانبى، صورة لي، منذ أيـام الشـباب الأولى. شعر غزير، شارب كثيـف، عيـون تشـع شـبابًا وحيوية. فى مواجهتها، صورة لرحمة، مرسومة بالفحم، فتاة صغيرة، تشع منها، رائحة الطهر والبراءة. الرضا عن الدنيا وعن حياتها، الإطمئنان إلى الماضى والحاضر والمستقبل. على اليمين حجرة الجلوس، فى صدرها دولاب قديم، انطفـأ لمعان زجاجه، بداخله أطقم شاى ومثلجات وجـاتوه، تقـول رحمة، إن هذه الأطقم اشتروها، في أعـوام الرخـاء. قبـل الحرب الكبيرة. (وأى الأعوام مرت بدون حروب). تراهن على أنه لا يوجد مثل هذه الأطقم الآن. ولا حتى فـي بـلاد السند والهند. على الأوانى والاكواب والدوراق. رسوم كئيبة باردة، محلاة بالذهب، لسفن سافرت ولن تعـود، ولرجـال ذهبوا إلى مدن العشق والحكمة، ليحضروا الدواء الشافي لكل الأوجاع، سقطوا فى منتصـف الطريـق، طلعـت علـيهم العفاريت، حولتهم بفعل السحر إلى طيور وحيوانات أليفـة، عاشوا هناك، في إنتظار المخلص الذي سيعيدهم إلى حياتهم

البشرية. خلف الرسوم، مناظر لسماوات زرقاء صافية، وأيام ملبدة بالغيوم.

الحجرة المواجهة، حجرة المائدة. فيها منضدة كبيرة، حولها كراس، يتوسطها كرسي كبير، يشبه كرسي العرش، فى حكايات ألف ليلة وليلة. فى الأركان دولاب للفضيات وثلاجة كبيرة. فى آخر الحجرة، نافذة تطل على الفراغ اللا نهائي للحقول البعيدة.

الدور الثانى، به ثلاث حجرات، حجرة نوم لي، وحجرة نوم لرحمة، وحجرة نوم للضيوف. على السطوح العالية، وهى أعلى سطوح فى الناحية، خزان مياه، وسلك تليفون وإيريال تليفزيون. وحجرة صغيرة، بها سرير نحاسي قديم، سرير الفرح، بجواره سرير صغير، اشترياه مع الجهاز، وظل السرير يحتل مكانه فى حجرة نومنا:

- الصبر يا عبد الله، إلى أن يفرجها الله.

لم يأت الطفل. كنا فى البداية ننام معاً فى حجرة واحدة، وعلى سرير واحد. ومع مرور الأيام، ومرورها يفعل بالناس والأشياء أكثر الأمور غرابة، إقتنعنا، دونما

عذاب الكلمات، وبعيداً عن مشقة الأخذ والعطاء. بأنه قد آن الأوان، لأن ينام كل منا بمفرده، على سرير خاص، وفى حجرة مستقلة، وأن يتحول سريرنا النحاسى الذى غدا احدى تحف هذا الزمان، وسرير الطفل المنتظر إلى حجرة المخلفات، فوق السطوح.

وقد كان..

فى الأمسيات، تأتي الرياح فتكنس الأمانى المحنطة والأحزان القديمة، ويبقى في هذا المنزل الكبير، شئ ما لا يعرفه أحد. وفى الردهات الطويلة، وعلى السلالم وخالال فراغ الحجرا- العالية السقوف، يتحرك الضجر، يأتى الليل، وتنام العيون، ولا يبقى لنا، سوى رماد الذكريات، وبقايا كلمات هامسة، قيلت خلال النهار، وأحلام مدفونة فى حبة القلب، استيقظت ثم ماتت. يتحول الليل، بطوله، إلى محاولة كى تطيل، حبال الصبر.

- ٢ -

فى الصباح، أصحو من نومى، أفتح عينى، يبدأ اليوم بالإحساس بأماكن الألم فى الجسم، أدرك أن هيكلي مريض،

يطالع عيناى جدران الحجرة، وسقفها. نفس المشهد الذ أفتح عليه عيناى منذ سنوات، أحاول الوقوف، أحس بدوار خفيف، يخيل إلى أن الأرض تدور، الجدران تلف، إن مرضى لم يكتشف بعد. فى الخارج صياح الديكة، السكون الموحش، قطرات الضوء تثقب رداء الفجر الرمادى. أخلع جلبابي الذى أنام به على اللحم. أرتدى ملابس خفيفة. أخرج بها. على باب حجرتى، أشم رائحة هواء الصباح الطرى، أفضل أن يكون خروجى من الباب الخلفى، أمر على حجرة المعاش، المنخزن، الحظائر تطل من داخلها العتمة. من خلال ضوء الصباح الأزرق، أرى أحدى العاملات، تجلس تحت الجاموسة، تتحسس بأصابع يدها الخشنة الشعر النابت فوق الضرع، أسم صوت اصطدام قطرات اللبن بقاع الشالية، بخار اللبن الدافئ يستريح على خدودها. يزيدها إحمرارًا. أشم رائحة اختمار الأرض بروث البهائم طول الليل.

أسير فى الطريق بين الحقول. تراب الأرض مبلل بالندى، الشمس تخرج على البعد من الأفق الشرقى، تصافح عيناى خضرة النباتات، إنها تبدو كراحة يد مستوية، غير أنها راحة يد رصاصية اللون.

اليوم هو يوم الخميس، الوقت أول أيام الربيع، كل ما حولى ينشر رائحة الخصوبة، تبدو الأرض غامقة السواد، على الحشائش الخضراء، آثار الطل الليلي، نداءات الطيور والحيوانات، وخفيف أوراق النباتات والأشجار تتجاوب فى فضاء الحقول. فتتحول إلى نغمة حب واشتياق.

فى كل صباح، أمشى وسط الحقول، دونما هدف، أشعر بالتعب، أجلس على مدار ساقيه، أو فى خص أو تحت ضليلة، تستريح عيناى على زرقة السماء الربيعية الصافية، ترتفع الشمس، تطول الجلسة، أنسى نفسي، أغرق فى ضباب أفكار صبيانية، أقلد صوتاً من أصوات سكان العزبة، أتذكر كلمات حفظتها من أيام الدراسة، أنام على ظهرى، أمسك بقطع الطوب، أرميها فى مياه القناة، تتكسر أمواج المياة الهادئة، أدير عينى فى الأرض والأفق البعيد، أنظر فى أرضي قطعة قطعة، تستوقفنى المساحات البيضاء من الأرض، إنها الأرض المالحة، على المدى، آخر النظر، يكون الصمت والفراغ العذب، حيوانات تأكل، أشجار تحرك نسائم الصباح أوراقها، قنوات بقايا مياه عكرة، طيور تعبر فضاء السماء فى بطء، ملابس معلقة على أفرع الأشجار،

رجال نائمون فى كسل، رغم رائحة الصباح، أحاول أن أتحسس الأرض بعروقى، تصل عيناى لأصوات الطبيعة، لذلك الضجيج الصامت فى كل صباح.

أتذكر حالتي، أ:ور قبضي، تسرى فى الجسم رعشة، أهدد كل ما حولي، الأرض والنباتات والأشجار والسماء الصافية. أقول لابد وأن أجد حلاً. أقوم من رقدتى، أحاول أن أرى حدود أرضى. أقف، أدور دورة كاملة. المساحة أوسع من حدقتى عينى. لا أرى شيئًا.

أعود إلى منزلي، الناس هنا تسميه الشكمة - لا يدرى أحد سبب هذه التسمية - وإن كان الجميع يصرون عليها. رحمة هناك. تجلس فى الشرفة البحرية، التى تعلو المدخل المامى للمنزل. ها هى تنظر إلى أسف الشرفة. تحتها مدخل طويل، مفروش بالرمل، وحبات الزلط، وسط خطين من أشجار النارنج والليمون. على الجانبين حدائق واسعة، أشجار ياسمين ومانجو وجوافة، بين الأشجار خلايا نحل، ومبانى أرانب. فى نهاية الحديقة برج حمام أبيض اللون. عالم بأكمله بضج بالشوق والترف والحنين والخصوبة والحياة.

ـ ٣ ـ

رحمة تجلس، منتظرة عودتي، أمامها طعام الإفطار، موضوعاً في صينية نظيفة، فوقها غطاء أبيض كالحليب، بمجرد وصولي، ترفع الغطاء. أجلس على كرسي قديم مريح. أتناول إفطاري، أشرب كوباً واحداً من الشاي. متعة رحمة الصباحية، أن تشرب أكواباً كثيرة من الشاي، إنها تجلس أمامي، ترمي نظراتها الكسولة على امتداد الحقول. الشمس في هذا الوقت اتضحت، صعدت في السماء. في الحقول، رجال وأطفال ونساء يعملون أعواد النباتات مازالت مثقلة بقطرات الندى. إنها لم تجف بعد. تراب الأرض مبلل بالطل. وهواء الصباح الطري يرف بنعومة.

- ياه..

نجلس في الشرفة، نتذكر، أننا كنا نجلس هذه الجلسة، منذ سنوات مضت، لا ندري كم عددها. وأننا، إن امتد بنا العمر. سنظل نجلس، نفس الجلسة، في نفس الموعد، لسنوات كثيرة قادمة.

فى كل يوم لا يكون هناك ما نقوم به. التفكير فيما سنأكله. الانتقال من الشرفة إلى الصالة. الزحف من الصالة إلى إحدى الغرف الداخلية، التلذذ بتأجيل أعمال وهمية خوفاً من الفراغ، الذهاب إلى اقصى مكان فى الأرض والعودة إلى المنزل. السؤال والتدقيق عن أبسط الأمور فى العزبة، محاولة معرفة كل ما يجرى فيها. ما يقال عن حواديت الحب والزواج والطلاق وحكايات الحمل و الوحم والميلاد. ونمو الأطفال، انتظار وصول الجرائد والمجلات، من البندر القريب، عند حضورها تمنعني رحمة من قراءتها:

- العناوين الرئيسية، أرجوك.

- الليل الطويل.. حا نعمل فيه إيه؟.

نرتب معاً طريقة قراءتها. حل الكلمات المتقاطعة، أخبار الناس، بدون عنوان، صفحة الحوادث، أخبار المجتمع، الإعلانات، سوق السيارات، البيع والشراء، صفحة الوفيات، اليوميات، تقوم رحمة، تدخل حجرتها، تتجه إلى دولاب ملابسها،تفتحه، بمفتاح معها، تضع الجرائد والمجلات فى درج صغير، وتغلقه.

ها نحن نعود إلى الجلوس، لا نجد من الكلمات ما يقال، نصمت، أقوم من جلستى، أتجه إلى حجرة نومى. أفتح دولابى الخاص بمفتاح معى. تتهلل أسارير وجهي للمرة الأولى فى يومى، تسرع دقات القلب العجوز، تجرى دماء شابة فى عروقى، أتراجع خطوة أو خطوتين، تطالعنى أموالى، أضعها على الرف الأعلى والأوسط. مرتبة حسب فيمتها. لا أعدها. ما يهمنى رؤيتها. وتحسسها بيدى، والتأكد من ترتيب وضعها. فى الدرج السفلي، أشياء تخصنى، ساعة تراموای قديمة، ساعة المرحوم والدى. مسدس مرخص. عدد من الأعيرة النارية، منشة، شمسية يدها من العاج، خاتم من الذهب، دبلة، وثيقة زواج، وثائق ملكيتى للأرض، عقود إيجار، إيصالات بمبالغ مقترضة، وخطابات قديمة، لحد صعوبة قراءتها، توكيل رسمى من شقيقاتى لي بادراة ما يخصهن فى الميراث، أعداد من جريدة سياسية، كانت تصدر فى الأربعينات، أيام كان لى اهتمام بما يحدث فى مصر.

إن من يشاهدنى، وأنا مشغول بترتيب دولابي، وأنا أعيد ترتيبه، كل صباح مهما بدا لى مرتبًا. أجلس على الأرض، أبدو متعبًا ونقاط عرق تثقل جبهتى، أعمل بجد

وهمة ونشاط، ثمة عمل هام أنجزه، لا يوجد غيرى يستطيع القيام به. سرعان ما تنتهى كل الأعمال. ويعود الدولاب مرتبا، فأصاب بخيبة أمل.

أسمع الراديو، أغلقه، أحاول أن اكتشف كل ما فى العزبة، وكأنى أشاهدها للمرة الأولى. أذهب إلى المكتب كى أصرف أعمالى. فى الحقيقة، ليست هناك أعمال بالمرة، فلا يوجدنظام للعمل فى العزبة. كل الأعمال تتم بالصدفة. أجلس فى المكتب. أقلب فى الأوراق القديمة، أكلم رحمة بالتليفون، تخرج من فمى عبارات لا طعم لها. أرفع صوتى كأنى أخاطب شخصاً وراء البحار السبعة، أضحك وأثير ضجة لمجرد سماعى عبارة لا تستحق مجرد الابتسام، أنظر من ناف ذة مكتبي، أتحدث بالتليفون إلى أصدقاء، قريبيين وبعيدين، الحديث لا يزيد على السؤال عن الصحة، وحال الزوجة والأولاد. وأخبار المنازعات ودور المياة وبنك التسليف والجمعيات التعاونية.

مهما أفعل، فلا بد من ترك المكتب فى النهاية. أمر على التندة والدوار وماكينة المياه، وفى سيرى، أشعر أن حركة جسمى مختلة، لا تعرف مقصدها. أنا أدرك الآن، أن

إختلال حركة جسم الأنسان، تعنى ا،ه فى سبيله إلى القبر. أن الناس جميعًا يبدأون فى الموت إذا بلغوا سناً معينة، إنها بداية المنحدر. طريقة سير الرجل واتجاهه واندفاعه فى سيره، تحدد موقفه من الموت، الموت هو أبغض الأمور بالنسبة لى، إنه يعنى المعرفة المؤلمة، بأنه على المرء أن يدع أشياء لم ينجزها، وكلمات لم يقلها، تبقى معانى معلقة عرضة لكل التفسيرات والأكاذيب.

أعود إلى المنزل. ثم أخرج، ألف وأدور فى الحقول. أحادث من يقابلنى، أمرح مع الأطفال. لا أحب من سكان العزبة سوى الأطفال. أتغنى فى سيرى، بمقطع من أغنية قديمة، تقول كلماتها، ما أحلى أن يتكاشف المحبون، لكن الأيام ضنية، تسيطر على ذهنى فكرة معينة، أرددها لنفسى، انتهت حياتنا، ولم يبق لنا سوى الوجود الباهت القريب من العدم، تغوص المعانى فى روحى كالسكاكين. كنت أجد لذة خبيثة فى ترديد هذه المعانى فى ذهنى.

فى المساء. تنام الأحلام فى أهداب رحمة المرتعشة، تقول لي عيناها، هيا ننقش حكايتنا على سطح الماء الرقراق، وعلى نسمات الريح الهادئة ساعة الغروب، إن حديث المساء

يكون من طرف واحد. منها هى. وأنا جالس أمامها على كرسى مريح صنع خصيصًا لجلسة مسترخية كسولة. فى جلستنا، ندفن النهار الميت فى رحم الليل المقبل، نشاهد أشرعة السفن التى تسير ببطء فى البحر، تثير فى نفسينا احساسات غامضة عن الرحيل والسفر والغربة، وعندما يزحف الليل ببطء على جدران منزلنا، نشم رائحة الفجيعة. فى الليل، نحرق فى البخور أيامنا ولياليا وأحلامنا المبددة وأغنيات الحب القديمة.

أحيانا، تجيش نفسى، بلحن قديم، فأتكلم، صوت سريع مضطرب متهدج، أسرع فى كلماتى، كأنما قد نجوت من حريق أو أنقذت من غرق. أعبر عن نفسى فيما يشبه سذاجة الأطفال. لا تطول لحظات حديثى. أشعر أن فمى ممتلئ بالكلمات. أحتار أى الكلمات أختار فأصمت. إن العشاق يفهم كل منهم صاحبه أحسن الفهم حينما يلوذون بالصمت. أبلغ وأحلى كلمات الحب تظهر باردة خالية من كل معنى. بعد الصمت. أبلغ وأ؛لى كلمات الحب تظهر باردة خالية من كل معنى. بعد الصمت، يتمدد بداخلى معنى أسيان" ما أسرع ما ينقضى كل ما فى العالم".

- تعرفى يا رحمة.

أحاول أن أنقل إليها إحساسى الجديد. اتكلم، تذوب الكلمات فى صفاء لحظة الغسق الشجية. أدرك خلال حديثى معها، أنه لم يبق لى سوى رحمة، كل ما حولى ينخر فيه السوس، إنه احساس النهاية بلا زيادة ولا نقصان، احساس سرطان خبيق لا أدرى من أين بدا، ولا متى ينتهى. أنظر أمامى، خلفى. كل ما حولى يسير كما كان منذ عشرين عاماً. الحديث عن النقود غير مستحب، حتى بين الأصدقاء. المال مرتبط بالخجل أو الخوف من الحسد. هذا ما يحول دون الخوص فيه، وجعله من الأمور السرية، التى يحسن الامتناع عن ذكرها. لم يكن لنا، أنا ورحمة من حديث، فى أكثر لياليا إلا عن الأمونال. فى البداية، كانت أموالنا تزداد بسرعة. وكان هذا هو موضوع حديثنا المفضل كل مساء.

ومهما بدا كل منا مشغولاً بأشياء كثيرة، فثمة لحظة بعينها، فى آخر يومنا أو ليلنا الطويل، يجد كل منا نفسه عاجزاً وحيداً. وعند هذه اللحظة، نهمس لأنفسنا، آه لو استطاع الإنسان أ، يبدأ من جديد.

أعود إلى منزلى، لأنه لا يوجد مكان آخر أذهب إليه، قد أفكر فى الذهاب إلى مكان ما. أقرب مدينة، زيارة لبعض الأصدقاء. غير أن هذا معناه، أن أغير ملابسى، وأرتدى أجمل ما عندى. وأطلب سيارة أجرة من البندر. وكل هذا يكلف كثيرًا. لست بخيلاً ولكن كل ما حولى جف ونضب خلال الأيام الأخيرة.

هأنذا ألف وأدور، أفكر، وأشغل نفسى بأمور كثيرة، إلا إننى أعود فى النهاية إلى منزلى، تاركاً يأسى، اليأس بلا حدود، علامة فوق وجه الأيام والليالى.

النوم في الظلال

- ١ -

كنت أعود إلى البيت عطشان، فترويني من ماء الكلمات، الصوت المغنى يمسح الصدأ، ويذيب قلق الأيام. فى عيني رحمة، خليج، مرسى، مكان هادئ، ترسو فيه أشرعة الشوق. يا قلبى المتعب، فلأبحر فى عينى رحمة، ولتكن رحلتى الأولى، والأخيرة.

تزوجت ذات مساء. لأنه كان يجب أن أتزوج. طلب والدى منى ذلك. قيل لي، أن الزواج فى حياة والدى أفضل. العروس فتاة لم أعرفها من قبل. حاولت أن أعترض، أن أوضح حقى فى إختيارها.

- يا والدى.. أصل

- يا خلف أنت صغير.

قال والدى، إنه ضمن ما تعلمه فى الزمان القديم، إن الزواج الأقارب ضار، لا يتيح عنه أطفال أقوياء. قالت أمى: إن والدى وضع عينيه على ابنه رجل من أغنى رجال

الناحية، أنا الإبن الوحيد للأسرة، أخوتى بنات، من خلالـي سيستمر اسم العائلة. ذكرت أمى اسم الأسرة التى سأناسبها، خفقة القلب لم أعرف طعمها، أغمضت عينى ورحت استجل أحلام الصبا والشباب.

- على بركة الله.

قلت لنفسى، ليكن الزواج نهاية الابحار فى سنوات الإرهاق. لأستعد منذ الآن لاستلام العزبة والأموال والأسم، فى هذه الليلة، لم أن حتى الصباح. إن من كان يشاهدنى وأنا أسير فى حجرتى، بعد منتصف الليل، يدرك أنى كبرت مائة سنة دفعة واحدة، غدوت رجلاً مهمومًا. لم أكن أدرى مـا أريده. الزراعة سر غريب، إدارة العزبة تبدو عالماً مسربـًلا بالطلاسم. كان والدى من انجح الرجال فى الناحية. غير أن نجاحه كان يبدو سره الخاص. وددت لو أعود إلى المدينـة. غير أنه كان فى المدينة، فشلى، ومكـانى غيـر المحـدد، وفراغى.

يوم الذهاب إلى منزل العروس، إنها المرة الأولـى، وقت العصر، حضر حلاق من البلد المجـاور لنـا، قـص شعرى وحلق ذقنى. بدا لى الأمر بالغ الغرابة، حضرت أكثر

من سيارة، لنقل اسرتنا، فى السيارة، كنت صامتاً من حولى كان الصخب والضجيج، وكانت السعادة.

- مالك يا عريس؟

- لا.

وصلنا إلى بيت العروس. الوقت مساء. انتابنى احساس بالخوف، قلت لنفسي، فلنحتكم إلى حكم من نوع جديد، ولتجر الأمور على أساس آخر، وهمست لنفسى، وأنا أضع قدمى على اول باب العروس. ليس المهم أن نبكى على ما ضاع، وهو كثير، أكثر من أن يحصى. إنه سنوات العمر التى مضت، أحلامه التى لم تتحقق، مشروعاته وطموحاته المجنونه، الأهم أن نستعد للبكاء على ما هو آت.

لا بد من الزواج. عجزت الكلمات عن إيصال ما بنفس الوافد الجديد، ابن المدينة إلى أبيه وأمه، أهله القدامى، رضخت، أخذ رضوخى شكل الاستسلام والمذلة، طلبت من أختى أن تجلس أمام العروس. فى مكان قريب منها، يمكنها من رؤيتها، أما أختى الصغرى. كان عليها أن تدخل مع العروس حجرة نومها. قد يكون بجسدها عيب ما. عند دخول

العروس إلى حجرة الجلوس. كان على أختى أن تسير خلفها، وأن تتمعن فى سيرها. أمى كان لها دور، أن تجر العروس فى الحديث، تتكلم معها فى أمور كثيرة، لسماع صوتها ومعرفة اهتماماتها. عيوب السمع و الكلام عندما تكون اكتشافاً خاصاً بليلة الدخلة، تصبح مؤلمة، كان مجرد حديث والدى يعد خطبة من الصعب التراجع فيها. قبل الحديث لم تكن هناك فرصة لمعرفتها، بعد لقاء اليوم لن تسنح هذه الفرصة، كنت كالغريق، أتصرف دون وعى.

جلست، اكتشفت أننى بين حشد هائل من الأهل والأقارب، أدركت أن اللعبة استعراضية، قبل أن تحضر العروس. أحضروا كميات هائلة من الطعام. كان من الواضح أن الذى أعدها طباخ ماهر، أحضروه من البنادر البعيدة، وضع الطعام، ودخل رجال ضخام الهياكل، نساء شحميات لحميات، وتناهت إلى ضحكات صافية، ثم حضرت العروس. سلمت عليها. حاولت أن أرى وجهها، ولكنها كانت تنظر فى الأرض، وعندما سلمت على والدى قبلت يديه.

- ازيك يا سيدى.

قالتها بصوت منطفئ، أحسست بالضيق، قلت لنفسى، أن ما أقدم عليه الآن هزيمة، ليس له أسم آخر. سألت نفسى. بصوت جريح، عن أيام القاهرة والإسكندرية، الدراسة، النجاح والفشل، الهروب، العودة إلى هنا. هجم الجميع على الطعام بلا رحمة. سمعت حديثًا عن الطعام، كثرته، دسامته، طريقة صنعه، قيلت نكات، وصفنا أهل العروس بالكرم أكثر من مرة. دعينا لهم بالعمران وطول العمر وكثرة الخير. أن فترة من الخمود تمر الآن. والكلمات تنطفئ ببطء، العبارات كسولة مسترخية، والوجوه تنطق بتعب واعياء لا يعرف المرء السبب فيه.

قام والدى. وقف الجميع لقومته، حدثت أمور غريبة، تعاقد على أعمال تجارية، شراء أرض، اتفاق على كتابة شكوى مشتركة إلى مهندس الرى. اقتراض نقود، التفكير فى عمل منحل. الشروع فى شراء جرار للحرث، البحث عن ماكينة رى مستعملة، تحديد موعد زيارات. فى طريق العودة، اقتربت من شقيقتى:

- العروس اسمها إيه؟

- رحمة.

- نعم؟

- رحمة. رحمة.

- اسم رائع.

قالت أختى بصوت مسموع، إنها مستريحة للموضوع كله. العروس جميلة، وصغيرة فى السن. تمنى لى الجميع، العمر الطويل والخلفة الصالحة، أملأ بهم الأرض. وبدأ والدى يحكى حكاية قديمة. الحديث الآن عن قصة زواجه من أمى. كانت الحكاية حلوة. قديمة ورائعة. وكان يتحدث عن مصاعب ومتاعب، وأخطار خاضها، وعن منافس له، هو الآن أحد كبار موظفى الدولة، الكلمات تنطلق من فمه هادئة وسنانة تعبق جو السيارة برائحة الماضى البعيد، ثم تسكب فى آذان تسمع بلهفة وشوق وشغف. كنت حزينا، حزن هرم عجوز، ورحت أحاول الانصات إلى ما يقال.

تكررت الزيارات، أذكر أنى جلست معها، مرة أو مرتين، تحدثنا فى أمور عامة، أوشكت أن أطلب من أبى، أن ينهى الموضوع كله، غير أنى كنت محتارًا. وكانت حيرتى

اكبر من تفكيرى. كنت أود أن أنفرد بها، ولو مرة واحدة. نتكاشف، ونقول ونحكى دونما رقيب، وقد نصل من خلال المكاشفة إلى بر الأمان. ولكن هذا لم يحدث أبداً، طول فترة الخطبة. كنت معذباً.

ـ ٢ ـ

لية الدخلة، رائحة الدفء ومعنى البكارة، الوجه المتوهج بالرغبة، ذراعان من الذهب، اليدان تطوقان جسمى. أتمنى أن تطلق بداخلى الحياة التى طال احتباسها كنبع هادر ساخن.

كنت خائفاً

غرفة العروس. مدفأة موقدة فى الحمام. الحنة الحمراء الداكنة فى راحة اليدين، وبطن القدمين، الماشطات والغاسلات، البخار و التدليك، رحمة مجموعة من المنى والاحلام، ثقيلة بالثياب و الذهب، تحت القدمين ترمى حكايات البسيطة.

- كان نفسى أكلمك من زمان

- نفس الشعور

فى القدمين، خلخال غليظ من الفضة، اليد مزدانة بعدد من الخواتم الزرقاء والحمراء والخضراء. الثوب الأبيض على الجسد. الحمرة الدسمة فوق الشفاه. الفرق الأبيض وسط الشعر الأسود المدهون بماء الورد.

- فكرت أبعت لك كلام.

- إيه اللى منعك؟

- خفت.

- من إيه؟.

- تقول على بنت سايبه.

هى هى ذى العروس، رفيقة العمر، فتاة صغيرة، قلب لم يجرب اللهفة والحزن والفرح والجنون. لم تعرف من قبل سوى بيت أبيها، لم تتعرض للفحات الهواء، ولم يلامس جسدها تيار بارد، ولا لفحات دافئة، عيناها بحر من الأشواق، يبحر فيه رجلها وفارسها.

- أهلاً رحمة.

- أهلاً بيك.

على الشفتين كلمات، لكنها لم تقلها، اكتفت بنظرة طويلة، نظرتها. بدت لى كأنها لا نهاية لها. شققت أمواج الليل، قلت لنفسى فلنحلب نجوم السماء. من لبنها سنصنع الدواء الشافى لكل الأمراض والعلل. اقتربت منها، قطعت نصف المسافة إلى، استبشرت خيراً، استعنت بالله، أمسكت بوجهها بين يدى. بدا لى جميلاً، هادئاً، وادعاً. دسست شفتى بين شفتيها، أغمضت عينى، راحت يداى تجوسان فى كل جزء من جسمها. لقد عشت معها، ليالى العمر التالية كلها. ولكنى لم أر جسمها سوى هذه الليلة. مساحة من البياض الناعم. تناسق ودقة فى الأطراف. تبدو ممتلئة. شعرت أننى أقف فوق هاوية، السقوط فيها يرعبنى، فكرت أن أطلب منها تأجيل ذلك إلى الليلة القادمة، أنا مرهق ومتعب أرجوك، لم أقل شيئًا. أقدمت على التجربة. مددت يدى، بدأت أخلع ملابسها، مانعت، بدت خجولة، وقبت بين يدى ساكنة، نظراتها عالم من الدهشة والحنين والرغبة، تنظر إلى بتركيز وأنا أجردها من ملابسها، أرقدتها على الفراش، تشبثت بها فى عنف، ضغطت جسدى عليها، ألقيت بيدى فوق صدرها.

أدهشنى هدوءها، تذكرت أن اصدقائى، كانوا يقولون أن ممارسة الجنس تبدو مثل الصراع، كانت تنام ساكنة، أفزعتنى نظرتها الباردة، النظرة التى تمتد إلى، تلمس جسدى كالسلك البارد، فجأة. خمد كل ما فى داخلى، انفصلت عنها، نمت بجوارها، اكشتفت أن نور الحجرة مضاء. نظرت إليها، كانت عارية، تنام على ظهرها، وساقاها منفرجتان بشكل مثير، ويدها تغطى عينيها، ويداها الأخرى تنام فى تجويف صدرها. كانت جميلة، استمرت على ذلك، فترة ما. فهمت أنها مازالت تنتظر، فالمضاجعة لم تتم، كان على أن أتصرف.

- أنت نمتى؟

لم تفهم الأمر بعد.

- خلاص، قومى.

قامت ارتدى ملابسها.

من إيه؟.

قلت وأنا أطوف بعينى فى حجرة نومى:

- أنا أصلى مرهق النهاردة.

كنت أريد أن أبكى، وأن يستمر بكائى حتى تجف كل أنهار العالم، وتذوقت فى صمتى طعم حبات الملح تحت الأضراس، أغمضت عينى، رحت أستحضر صورًا من الماضى البعيد، أستعين بها على مواجهة اللحظة الحاضرة، بذلت كل ما أقدر عليه، ولكنى فشلت، كنت أعيش فى نوع من الوهم والضباب الذى لا أرى فيه صورتى الحقيقية، وكانت رحمة، مرآة جديدة لى، أرى فيها الأشياء، كما هى فى الواقع، الامتحان صعب. والنتيجة قاتلة. لم تتكلم رحمة كثيرًا فى ليلتنا الأولى، وحتى بعد هذه الليلة، لم تكن تحب كثرة الكلام.

كان ما حدث كثيرًا على، قررت فى صمت الليل، أن يظل هذا الجرح، سرى الخاص بى، لا يجب أن أكشف عنه فى سلوكى أو مظهرى الخارجى، بل أطكويه فى أعماق روحى، أن الجراح تلتئم، ولكن الندوب تظل باقية، علامات على الجسد وفى الروح، وبدأت أنظر إلى حياتى، وإلى رحمة، وإلى مستقبلى نظرة مجردة من البهجة الأولى.

نامت رحمة، وبدأ النوم يكشف لى، عن أروع ما فيا، إنها فتاة جميلة، أحسست نحوها بالعطف، إنها مستغرفة

فى النوم، ورأسها على صدرى، أشعرنى ذلك بدفء وخالجنى، للحظة عابرة، عشق حار لها. فجر الدموع فى عينى، كان قلبى البكر، مترعًا بالحب فى الأيام الأولى من شبابى.

هل أحببت رحمة؟ إنى أقف الآن، فى أيام الكهولة الشاحبة وبعد عشرتى الطويلة معها، أمام هذا التساؤل. ولا أدرى كيف أجيب عليه، هأنذا أؤكد أننى وقعت فى هواها. منذ ليتنا الأولى، من البداية، رحت أربط بينها وبين جميع الأشياء الجميلة فى حياتى، التى تحولت إلى مستحيلات معلقة على جبين العمر. كانت رحمة، حانية رقيقة، لا تكثر طرح الأسئلة، ومهما تكلمت، فى أيامنا الطويلة، فإنها كانت تبقى أشياء كثيرة، تود أن تعرفها، وكلمات ترغب فى سماعها. وكان السكوت فى الوقت المناسب، أحب ميزاتها إلى نفسى.

ـ ٣ -

فى يوم الصباحية، لاحظت أمى، أننا لم نستحم، سألت رحمة، فخلجلت من الرد، سألتننى، لم أرد عليها،

شربت كلماتها، وبدأ لى الرد جزيرة أمان من الصعب، الوصول إليها.

قالت: إنى مربوط. أكملت، وكنت أستمع إليها فى ذلك الصباح البعيد متعبًا. قد تكون رحمة، على علاقة بشاب ما فى بلدتها، أحبها بجنون، وفى آخر لقاء معها، تحدثت النظرات وقطرات الدمع ودقات القلوب، وقالتها الأصابع المتشابكة، والأكف النائمة فى الأكف، إن الفراق قد حل أخيرًا. رحمة تقول، لا حيلة لها فيها حدث، تطلب منه أن يتصرف فهو رجل. عند أحد الشيوخ يتصرف العاشق العاجز، يذهب إليه، يحكى له الحكاية، المطلوب معجزة، ستعود له فتاته، بعد ألف سنة، المهم أن تظل عذراء.

- بسيطة يا زين الشباب.

يكتب له عملاً، يربط الرجل الآخر، هذا وحده كفيل بهدم الأسرة الجديدة، يخرج الشاب، بيده اليسرى ورقة فيها مطالب الشيخ، ويده اليمنى تبحث عن حافظة نقوده، يحاول أن يعرف ما معه، وما يحتاجه كى يتم المشروع. أخيراً، يكتب العمل المطلوب، ورقة بيضاء، بها خطوط بقلم أحمر لا معنى لها. يوضع العمل فى مكان يحدده الشيخ، جذع

شجرة عجوز، عش غراب مهجور، أسفل برج حمام، وينتظر العاشق ما سيحدث للزوج الغريم.

استمعت لحديث أمى، عجبت من راحة اليقين، التى تبدو فى كلماتها، لم يخالجها شك فى كل ما قالته لى، ولم أحاول من ناحيتى أن أناقشها، كنت مهزوماً حتى النخاع، وكان الصباح يبدو لى مكفهراً، مصفر الجبين بالمذلة والهوان، رفضت الفكرة، قالت أمى، من المهم أن أعرف الشيخ الذى كتب العمل، فهو وحده القادر على إبطال مفعوله.

قالت: ليس من الهم الانتقام منه، أو تحويل الأمر إلى فضيحة، فالشامتون أكثر من أن يحصيهم العد، وما نطلبه الآن هو الشفاء فقط،

- ولك رب اسمه الكريم يا بنى.

بعد حديثها، بدأ لى الليل، رحلة نحو النهاية، وتمثلت معنى العجز والمحاولات اليائسة، وتذكرت حبات العرق والنظرات المنكسرة، والتساؤل الذى كان يرف فى وجه رحمة طول الليل كالطير الحبيس، والأحرف التى كانت تخرج من الحلق الجاف بلا معنى، وعشت من جديد صمت

الليلة الماضية. وقلت لنفسى: إن الصمت ليس هو البديل للكلام. إنه ليس امتناعًا عن إحداث أصوات. الصمت عالم زاخر بما فيه، الصمت عالم الهجرة إلى الداخل والعجز و التردى فى الهاوية والأسهم التى تشير إلى أسف.

طول يومى الأول. كنت نائماً. أضع رأسى على وسادة قديمة، محشوة بأنات المحبين ومغسولة بالآمال المؤجلة والأحلام المستحيلة التحقيق. حاولت أن أتكلم، أن أقرب فمى من فم رحمة، أن تغلق باب حجرتنا علينا، حيث يهدر شلال الأغنيات القديمة، أقول وتقول، أحكى وتحكى، أغنى وتغنى، وعبر رأسينا، ينتقل طوفان الكلمات الساخنة. قرب الظهر، اقتربت منى. بدت لى إمرأة تقدم بها العمر، وقفت بجوار سريرى، وضعت يدها على حافة السرير:

- يا سى خلف.

التلفت إليها، قالت بصوت خافت كالأنين الموجع:

- إوع تزعل نفسك، شدة وتزول، أنت سيد الرجالة كلها.

تهت فى مشاعر دافقة فياضة، صعد بخار ساخن إلى صدرى ورأسى، نبتت حبات عرق فى كل مكان من جسمى. قلت لنفسى، فلتكن رحمة هى كل عالمى، رفيقة العمر، الدار والدواء، أشعرنى حديثها، بأشياء كثيرة، دم النفاس، الولادة، ليالى الزفاف، أيام الطهور، مواد القطط، نباح الكلاب، عواء الذئاب، هديل الحمام فى البنانى، نداءات إناث الحيوانات، الرحم الكبير ينز منه الدم الأحمر، مياه الحموم ورغوات الصابون فى حوارى العزبة صباحاً. فم طفل يمتص ثدياً ممتلئًا.

واستسلمت لكل ما طلب منى، كنت كالمخدر، ضرب الودع، فتح الكتاب، الاستيقاظ فى الفجر الرمادى الموحش لرمى حجاب فى مياه ترعة لم تقع عليها عين إنسان. مص زعازيع القصب.

شرب كميات من عسل النحل قبل الإفطار، أكل خبز معجون بدم رحمة، الذكر فى حلقات الزار، التطوح يمينًا وشمالاً حتى أغيب عن الوعى، الصراخ والعويل والبكاء والسباحةفى بحور من العرق، أكل جمارة الذرة، مص رحيق الأزهار، شرب طاسة الخضة قبل الفجر، أكل قلب

وكبدة ديك أبيض لا توجد به أى إشارة، مضغ قلب هدهد يتيم.

جلست أمام الغجرية، فى العين فجور، وفى الجسد رعشة محببة.

- ارم بياضك.

مساحة الرمل تبدو فى غموض وضيق الأيام القادمة، مددت يدى فى جيبي، أعطيتها كل ما معى.

- وشوش الدكر.

ذكرت اسمى، واسم أبى واسم أمى

- قدامك سكة سفر

تحدثت الغجرية، دعت أن يكفينى الله شر الحسود، ذكرتنى بنذور أنذرتها وأنستنى الأيام إياها، طلبت منى أن أطمئن. وران صمت. منعنى الحرج أن أقول ما عندى، البوح بما فى الصدور ليس هذا وقته ولا أوانه.. فى أيام الصبا فتحت ذراعى، وقلت لنفسى، سأقرأ وأجرى وألعب وأشرب كل أفراح العالم، ثم... ما حدث كله معروف. الغجرية ما زالت تتكلم، زوجتى تحبنى، يجب أن أحافظ

عليها، إن مستقبلاً سعيداً ينتظرنى، فى الطريق إلى أولاد. سبعة من الذكور، وثلاث بنات كالبدور، الأحلام التى تتحقق أبداً تسيل من كلمات الغجرية، حديثها مازال يأتى إلى، يتحول إلى خيوط أطير عليها إلى عالم آخر.

السفر إلى أولياء الله الصالحين سكة فى القلب، النذور معلقة فى أماقى العيون، الجلوس أمام ستارة بيضاء ساعات لن تحسب من العمر، الوسيط ينقل الأمانى إلا مولانا، يعود حاملاً طلبات سيدنا: العالم أمل. كله أمل. لحظات الانتظار عصمتى الوحيدة، فدية أمام المرض وقال مولانا: اصبر يا بنى. الصبر دواؤنا وزادنا، وصبرت، غير أنه لم يكن صبراً.. كان نوعاً من الموت.

فعلت كل ما طلب منى دون مناقشة، بدت الثورة على كل ما يحدث، كالجنون، البحث عن أسباب عذاب كل يوم أمام الآخرين رحت أوكد فى كل وقت إنى رجل سعيد. وإن رحمة أسعد نساء الأرض. حوادث الحمل والولادة تضايقنى، حتى بين الحيوانات، أتوقف أمام نمو الأطفال السريع المدهش، قطع اللحم الحمراء التى لا تعنى أى شئ. فى غفلة من الزمان، نفجأ بها تفرض علينا وجودها وحياتها

وأحلامها الجديدة. أدرك معنى الزمان، وبشاعة ما آلت إليه الحال. عندما أفاجأ بأحد المستأجرين يطلب منى يوماً أجازة، كى يقدم لأحد أبنائه فى المدرسة، أسأله: أى الأبناء. يقول لى اسمه، أتذكر يوم ميلاده، كم هو قريب.

يبدو لى كأنه بالأمس، غير أن هذا الأمس تفصل بينى وبينه الآن ست سنوات، أو أن يحضر شاب صغير، يدعونى لحضور حفل زواجه. فتهب رياح فى صدرى، أشعر أن القلب تورم، وأنه أوشك أن يتوقف عن الخفقان. وأتذكر أننى شاهدت عرس والده، وصاحت أمه على أبيه أكثر من مرة، وأتعجب من سير الزمان.

المشكلة مشكلة أبى وأمى، الهمس فى مثل هذه البيوت له رائحة لا تخطئها النفس، قبل كلام كثير، استقر الرأى على أن نسافر إلى البنادر، إلى مصر أم الدنيا، وهناك الحكماء والعلاج والأمل.

سافرت أنا ورحمة وأبى، عرضت نفسى على أكثر من طبيب، أنفقت أموالاً، أدخرناها لمثل هذه الأيام، واجتاحنى حنين راعش لحياة المدينة. فى القاهرة، وجدت نفسى. وعند كل طبيب، كنت مرغماً أن أحكى بالتفصيل،

وأن أجيب على ألوف الأسئلة أخذت منى عينات كثيرة. وقيل لى بالحرف الواحد، فى حضور والدى، فى إحدى حجرات كبار الأطباء الرطبة، التى تعبق برائحة المستحضرات الطبية:

- حالة عقم

أكثر من طبيب أكدوا هذا.. وجدت نفسى أصبح فى بلادة، لم أكن أشعر بحزن ولا بفرح ولا لهفة أو حبور، بل استسلام، أقرب إلى اطمئنان من لا يفهمون الأمور على حقيقتها. ثار والدى قال إنه قادر على الذهاب إلى كل بلاد العالم، لن يعرف طعم اليأس، نقوده قادرة على فعل المستحيل.

العودة إلى العزبة، قال والدى، ستعود وإن كانت المشكلة لا بد وأن تحل بشكل أو بآخر. قال إنه متأكد من ذلك. قلبه دليله. وهو صادق لم يكذبه من قبل.

عدنا نحن الثلاثة. إن شعوراً بالتعب والألم، يعترينى، واشتياقًا عميقاً للراحة، يملأ نفسى. كان ما قمت به، طوال رحلتنا يساوى جهود عمر بأكمله. وبدأ لى ما

يملكه والدى وهماً لا قيمة له، وتأكد لى هذا عندما أدركت أننا لا نستطيع أن نشترى بإعلان فى الصحف صدراً رحيماً، نبكى فوقه آلامنا، واخفاقاتنا الصغيرة.

- ٤ -

آخر الليل من جديد.

تتسع الحجرة علينا، تبدو رحمة ريانة، مفكوكة الشعر، تنز منها قطرات المياه، التى لها رائحة الجلود البشرية، ترتدى جلبابًا على اللحم، تجلس بجوارى، تقترب منى، يرتجف بداخلى شئ ما من الخوف، أتحسس بأصابع يدى ملمس جلدها الناعم، يخيل إلى، أن الرجال الغرباء خلف باب الغرفة يرون كل شئ. أغمض عينى من الخجل، أول لو أتكور بداخلها. أن أدفن وجهى فى صدرها. أن نشرب معاً قطرات عرق الليالى. حتى ما بعد منتصف الليل، ثمة وقت للتساؤلات والكلمات والأحلام والمنى. يدا رحمة صغيرتان. لا تغطيان كل مساحة ظهرى، العارية. ومهما مرت بيدها على ظهرى، تبقى دائماً مساحة صغيرة معرضة للطعنات. تدور بنا الحجرة، تعتدل، تميل، تقترب الجدران الأربعة،

ينخفض السقف، ترتفع الأرض، أنظر أسفل فلا أرى سوى بئر عميقة، فراغ لا نهائى، أنظر إليها، تموت نظرات الحب الودودة فى المسافات الشاسعة بينى وبينها. أمد لها يدى، يقول لى صمت الحجرة وظلامها. إنه يفصلنى عنها سبعة بحور وسبعة بلاد وسبع سنوات عجاف.

- مالك يا زين الرجال؟

أفزع من سؤالها، أجمع غدائر الشعر الليلية، تزداد العيون إتساعاً. يضيع العمر هباء. أتمنى أمنيات غريبة، أن أقف على حافة الجنون، أن أدخن الجوزة حتى تشتعل النار من الحجر، أن آكل الداتورة، فتدور الرأس، و تزوغ النظرات وتنحل العظام، وتنفك عقدة اللسان.

- رحمة؟

- نعم يا سى خلف.

- عمرك ما رحتى المركز؟

تحاول أن تتذكر، تغمض العينين وتحرك الشفتين

- والله مانا فاكرة ياسى خلف.

اجلس فى حجرة نومى، أمامى رحمة، ولا يملأ خيالى، سوى منظر شاهدته فى المركز، فى الزمان القديم، راقصة مترهلة الجسد، تطل من وجهها أصباغ صارخة، شعرعا أكرت ومنفوش حولها رجال مبتسمو الوجوه، يشربون خموراً رخيصة، تفوح منها رائحة الكحول، الأيادى تمتد و الأصابع تنغرس فى مساحات اللحم، يتعرى الجسد، كتل دافئة من اللحم النحاسى اللامع، يومها، أحسست بشئ دافئ وحار وملتهب يجرى فى عروقى، رعشة لم تتكر بعد ذلك أبداً. اشتقت كثيرًا للمرأة، غير أنها كانت المرة الأولى والأخيرة.

فى كل صباح، أشاهد رحمة، تبدو عيناها مرخاة الأهداب على استفهام جارح، كطعنة السكين، لم كل هذا؟ لم أكن أملك الإجابة عن سؤالها، أصمت، تقترب رحمة منى، تسكب المسك المعطر بالكافور فى أرجاء القلب، فتسكرنى رائحته. يطول الصمت والانتظار، أخرج، أحاول أن اذيب فى طفولة شمس الصباح، ما انتشر فى النفس من هموم الليلة السابقة، أشم رائحة الاشتهاء فى تراب الأرض المبلل بالندى.

أسير فى الحقول. أشرب الأصوات الصباحية، تنحدر النغمات والأصوات من الأذان إلى القلب فتكره.

أبتعد عن المنزل، أتوقف، أستدير ببطء، أنظر، أحاول أن أرى، أين رحمة، فى النهاية، أتمكن من رؤيتها، نقطة صغيرة فى الشرفة العلوية ويخيل إلى، إن وجهها الذى يبدو لى بعيداً، كأنه يبدأ أيام البكاء.

الإحتضار فى ليل طويل

- ١ -

هيا يا رحمة، لنجدل مشنقة من لحظات الإنتظار والسهاد والعيون الذابلة والقلوب المتآكلة، ثم نعلق نفسينا فيها بالتناول، وهناك. فى العالم الآخر، قد يصبح الليل نهراً من العناق والتواصل والاشتياق والحب.

عدت من المدينة البعيدة، لأنه كان يجب أن أعود. كانت إرادة أبى " عد فوراً - كتب إلى – ولا تخف" عدت، وإن كنت لا أدرى السبب. لم أكن أكملت تعليمى" سنة أو سنتين وأكمل تعليمى، وأحصل على شهادة". كان مصممًا على أن أستعد لتسلم العزبة، السبب واضح، جميع إخوتى من البنات أنا الرجل الوحيد فى العائلة بعد أبى.

فى أيام قليلة، أنهيت جميع أعمالى فى القاهرة، وتأهبت للعودة إلى العزبة، بدا لى النقاش ومحاولات الاقناع والأخذ والعطاء دون جدوى، كان والدى يبدو قويـًا سليماً. الأيام أمامه طويلة والأعمار بيد الله، ولكن والدى- ككل

الآباء الآخرين - كان يجب أن يرى ابنه الكبير، والوحيد، و هو يقوم بنفس الأعمال التى كان يقوم بها.

عدت، فى الأيام الأولى، اكتشفت، إن كل ما فى الغربة، الأرض و الزراعة والناس يسير بطريقة بالغة الغرابة، لم تكن هناك دفاتر ولا حسابات ولا أوراق، كل شئ مرتبط بوجود والدى شخصياً، وكان هو الذى يقوم بكل الأعمال.

فى يومى الأول، سألت فى الصباح، عن الكاتب وأمين المخزن وناظر العزبة والخفير والميكانيكى، سألت عنهم جميعًا دفعة واحدة، لتصورى أن العزبة تعنى أن هناك، نظاماً للعمل بها.

كانت دهشتى لا توصف عندما قيل لى، إنه لا توجد فى العزبة أى شخص من هؤلاء، سألت، وكيف تصرف الأعمال؟ لم يجب أحد، حملت تساؤلى إلى والدى، قلت له: إن إدارة الأعمال فن، وإن عزبة مثل هذه تحتاج إلى طاقم من العاملين، ونظام عمل، كى تستمر الأمور، فى مواجهة الظروف المتغيرة كل يوم.

قال أبى:

- دا كلام كتب.

عدت. لم يكن بداخلى سوى الإحساس بالصدمة، على باب بير منزلنا العظيم، توقفت، أدركت أنه توجد فى آخر حجرات هذا المنزل من الداخل، حجرة صغيرة، مدفونه، هى حجرتى: وأن هذه الحجرة لا بد وأن تستقبل إنسانة أخرى، لا أعرف إسمها حتى الآن. فأصابنى انكسار جديد.

- ٢ -

حاولت أن أعرف مقدار ما يملكه والدى، بدت لى الأرقام صغيرة بالنسبة لما أتصوره من قبل، سألت عن الموارد الأخرى، غير الزراعة، لم يكن هناك سوى الزراعة، زراعة أراض ملكنا وأرض مؤجرة.

قلت لنفسى إن المطلوب منى أن يتضاعف هذا الرقم فى سنوات قليلة، ليتحول فشلى الممثل فى دعوتى، إلى نجاح من نوع آخر. كانت الناس سكرى بطموحات صغيرة تافهة، كانوا مرتبطين بالأرض وبشكل ثابت للحياة من الصعب

تغييره. أما أنا، فلقد رأيت أن الجهل والكسل والإرتباط بالحياة، هى البيئة المناسبة لطموحى الكبير. همست فى سرى أن ريف مصر، هو أنسب الأمكنة لمشروعات المستقبل، لا بد وأن يتحول الميراث الصغير، إلى إقطاعية، لا تحدها حدود، وتمثلت فى ذهنى كلمات قرأتها فى صباى، أيام أن كنت طالباً فى المدرسة، عن عدالة التوزيع وحق الآخرين، والأرض، ومستقبل الأجيال الجديد، والثورة الاشتراكية فاستشعرت سخرية مريرة وقلت إن ما احتاجه هو دين جديد، خاص بى، كانت حماستى بلا حدود.

لا أحد يتصور فى العزبة أن الزمن يمر، الليل والنهار يتعاقبان، ولكن لك شئ هنا شكله الثابت، فلا أحد يرقب تبادل الظلام والضياء، الناس موتى، الزمن يمر، وبمروره البطىء، حدثت أمور كثيرة.

مات والدى، ثم ماتت أمي، ولم أكن أدرى وقتئذ معنى موتهما، غير أنى شعرت بعد ذلك باننى تقدمت فى العمر، وبالفعل نبتت فى رأسى شعيرات بيضاء، وتساقط شعر كثير، وبدأ صلع خفيف يزحف إلى مقدمة رأسى، أصبحت كبير الأسرة، رب عائلة جديدة، مطلق اليد، لا

سلطان لأحد عليه، ولأننى رب جديد، أحمل بداخلى بذرة الرب القديم، فقد حلت جميع مشاكل الميراث بلا ضجيج، وزعت الأرض على الورق فقط، وإن كانت قد ظلت معى من الناحية الفعلية.

قررت إن أحج، ذهبت فى البداية بمفردى، فى العام التالى، ذهبت معى رحمة، من يومها والكل ينادينى بالحاج، رغم صغر سنى، هدمت المنزل القديم، أقمت مكانه فيللا من دورين، جددت اكثر مبانى العزبة، زرعت حديقة موالح وسطها منحل كبير، وكثر ذهابى إلى البنادر البعيدة، كان مهمًا أن تربطنى علاقات ودودة مع أغنياء الناحية، والمسئولين عن الرى، والزراعة والجمعيات التعاونية والأمن والصحة، وجدتنى أتصرف كصورة أخرى من والدى، السؤال الحائر أبداً. ما زال يطل برأسه كل مساء. أين سنوات التعليم والجلوس على المكاتب والمناقشات والطموح، والرفض والقبول، والأحلام وأحزان آخر الليل. أقول الآن، دعوكم من كل هذا. لم يكن سوى قشرة خارجية، تشققت بعد عودتى، كسحب الشتاء الداكنة بعد سقوط الأمطار أو هبوب

الرياح، وبقى ما أسميه بالبذرة الداخلية، روح العائلة، التى عمرت هنا ألوف السنين، أنا نتاجها بكل ما فيها.

قال لى و الدى، قبل أن يموت بفترة، إن الظروف فى مصر الآن، أصبحت ضدنا:

- كل الظروف.

أكد والدى ذلك، وكنت أفهم ما يعنيه بكلمة الظروف، كان يقول لى، إن تاريخ عائلتنا طويل فى الناحية، نحن الجيل السابع أو الثامن منه، ،عن كان الآباء والأجداد حافظوا على ماورثوه حتى الآن، بل زادو عليه أحياناً، أكد لى والدى، إنه زاد على ماورثه خمسين فداناً، ولولا الظروف الجديدة، والتهديد بنزع الملكية، ونظام الإيجارات، وارتفاع أجور العمال، لأصبح عنده ألف فدان.

- أما أغنياء هذه الأيام.

قال أبى، إن هناك أغنياء جدداً، ليست لهم عائلات قديمة، يغتنون فجأة، هؤلاء أمرهم غريب، الجيل الأول يجمع الثروة ويصل لحد الغنى، والجيل الذى يليه، عليه أن ينفقها عن آخرها وكان الله بالسر عليماً،

- أما عائلتنا نحن.

قال أبى، أننا فرع من عايلة قديمة، قدم مصر نفسها.

- عائلة قديمة، كبيرة، مفرعة فروعاً كبيرة.

أكمل أبى، إن الأصل يقيم فى الصعيد، هناك أهلى وأعمامى، تذكرت أننى أعرفهم، فهم يحضرون إلينا فى المناسبات الهامة، الزواج أو الوفاة، قال أبى. إنه مطلوب منى، أن أحافظ على اسم العائلة بأى وسيلة كانت.

كان والدى راقداً على سريره القديم، ينظر فى ظلام المساء الوليد، بدأ يحدثنى عن مخاوف يشعر بها أكثر منى، طلب منى ألا يعرف اليأس سبيله إلى نفسى، وأن أفكر فى الزواج مرة أخرى، وأن أدرك، أن كل ما أقوم به، محافظة على ما جمعه الأجداد. كنت أنصت إليه، أشرب كلماته، عيناى مفتوحتان على آخرهما. يحاول أن أثبت صورته على جدران الذاكرة، طريقته فى الحديث، فتح فمه، غلقه نظرته إلى، رقدته، الذبول فى عينيه، المرض فوق ملامح وجهه.

خرجت من حجرته، وأنا لا أستطيع حتى الوقوف على الأرض، للحظة، شعرت بخوف قاتل يسرى فى دمى،

ولكنى أدركت أنه لا بد لى من أعمل، ومن يومها أشعر أنى رجل جديد.

أقبلت على حياتى بنهم، دخلت فى أعمال تجارية، خارج نطاق الزراعة، كان النجاح حليفى، وكنت أعجب من إقبالى الشره على الحياة، إن علاقة غريبة تربطنى بالدنيا، لقد كنا، كمن يعانق عدواً لدوداً ليس فى وسعه أن يهزمه، وبدا لى، فى هذه الفترة على الأقل، أن قبول مصير شاحب، أيسر من التخلى عنه.

سعدت بكل ما حولى، وعشت على اعتقاد غريب، بأن الأغنياء، خلقوا لكى يكونوا أغنياء، وأما الفقراء، فلقد خلقوا،لكى يصبحوا فقراء، وكنت أتصور، أن الفقير سعيد بفقره، متمسك به، محافظ عليه، مثل سعادة الغنى بغناه، قلت لنفسى، إن حدث فى مصر تغيير ما، فمعناه الوحيد، أن يزداد الغنى غنى، و الفقير فقراً، وكان هذا هو التغيير الوحيد المطلوب فى نظرى.

هأنذا أحبس نفسى فى منزلى الكبير، مع زوجة مطيعة بكماء، لا يسمع كل منا الآخر، إلا كلاماً شحيحاً قاسيا، أخاف من الناس ولا أصادق إنساناً، لا أشعر بالحاجة

إلى الثقة فى أحد، وسلواى الوحيدة، الاكتفاء بجمع المال، وشراء الأرض، إن لذة جمع المال وتكديسه أصبحت تفوق كل ما عداها فى نفسى، أدهشنى رغبتى فى الاستيلاء على كل ما حولى، وربما كان ذلك راجعاً إلى كثرة الفقراء حولى.

أجلس فى الليل، فى حجرتى، الظلام من حولى، أحاول أن أتصور مستقبل أيامى، أحصى ما يملكه أكبر أثرياء العالم، تتضاءل أكبر الأرقام فى نظرى، أكتشفت إن طموحى لا تحده حدود، وأقرر أن ما سأملكه بعد عشر سنوات يجب أن يكون أكبر من كل هذه الأرقام.(كنت أتصور أرقامها لا أجرؤ حتى على كتابتها هنا). وارسم بنفسى فى ظلام الليل، والليل يخفى حقائق الأشياء. الوسائل التى سأحقق بها الأحلام. لم أكن أنسى أدنى التفاصيل، إن ما آل إلى من الأرض والجاه قليل. وكنت اقرر كل مساء، إن أفعل ما لم يفعله أحد من قبل.

أنظر إلى نفسى الآن، اكتشف فقدان حماستى، لا أعرف كيف ومتى بدأ الأمر، الأمور كلها تستوى عندى، الفقر والغنى، الحياة والموت، الحب والكراهية، ذاب

الطموح، ما أملكه يكفينى حتى الموت، وفى هذا الكفاية، (مع افتراض أن أمامى ثلاثين سنة سأعيشها).

ومنذ سنوات، قلت لنفسى وأنا أسير فى شوارع القاهرة، بجوار فتاة صغيرة، زرقاء العينين، لا أذكر اسمها، الأرض تساوى العرض، ولو أخذ منى فى المستقبل، قيراطًا واحد لدمرت الكون، وأشعلت النار فى مصر كلها. قلت الكثير عن أحلامى، وكنت أقول لنفسى، فى أكثر الأوقات.

كل ما فى العزبة تغير، الزراعة، والناس، الربح والخسارة، ازداد طلب إخواتى للمال، لا أحد يدرى كيف توزع علينا الأدوار، قد تكون قصتك نهاية قصة اعز الناس عليك، مرة أخرى لا أحد يدرى، أخواتى يهددننى بيع ميراثهن من الأرض، عمال الزراعة والمستأجرون تغيرت معاملتهم، انتهت أيام خضوعهم، الدنيا تغيم فى عينى، أحتار ماذا أفعل، أحساس كابوسى يضغط على، أشعر أننى عاجز حتى عن التنفس، أثور، تسرع دقات القلب. فى الغد، الصباح الباكر على الأكثر، سأفعل المعجزات لا مطلب لى الآن، سوى أن يمتد بى العمر حتى الصباح. فى الصباح، يكون الخمول والكسل واللامبالاة. أبقى فى سريرى حتى الظهر،

وقد أظل نائماً طول النهار فاتحاً عينى، شاغلاً ذهنى بأمور تافهة. قرب الغسق، أجلس فى الشرفة البحرية، أنظر إلى الحقول، والليل الزاحف، اتذوق صمت ساعة الغروب، أتذكر كل الأمور، لا يبقى لى فى النهاية سوى رماد الذكريات، إن ما يفزعنى أن اليوم الذى يمر لا يعود آخر مثله، وأن القيراط الذى أبيعه من الأرض، لن أشترى غيره أبداً.

فى النهار، أسير كثيراً، بين الحقول، حتى أصل إلى جسر البحر، وهو الطريق العالى بجوار النيل، إنه أعلى مكان فى الناحية، أتوقف بعد صعود طويل، من حولى أشجار الكافور والجازورين، تفوح منها رائحة الخصوبة، على البعد، تلوح العزبة، أرضى، لا أكاد أرى حدودها، اشمس ساطعة، السماء زرقاء. الصمت يلف المكان بداخله، فى وقفتى، أدرك معنى المجهول، أتجاوز بعينى الخط الذى تلتقى عنده السماء بالأرض، عند هذا الخط البعيد، البعيد، توجد أجوبة شافية على كل تساؤلاتى، وحياة أكتف وأغنى وأكثر حرارة من حياتى الجافة التى أحياها مع رحمة.

الحلم فى العراء، الإبحار فى السنوات العجاف، إنكسار الظلال لحظة الهجير. القاهرة والصخب والضجيج،

رائحة هواء الاسكندرية المبلل بالمياه، الفتيات الصغيرات، تعبير البراءة على وجوه الأطفال، الوجوه المبتسمة الضاحكة، الأولاد، المال، ليالى الجنس، أنهار العناق والقبلات، السباحة فى بحار العرق، آه ما أكثر ما حملت، إنى أوكد، إنه لا توجد أشياء لم أحلم بها قط.

- ٣ -

لنتحدث قليلاً عن رحمة:

أغدقت فى الانفاق عليها، حاولت أن أحافظ على حبها لى، كنت أعول كثيرًا على أن أغرقها فى الترف والغنى، الإنسان يألف الترف والرخاء بسهولة، يصعب عليه أن يستغنى عنه، يصبح ضرورة من الضرورات بعد فترة ما. أو من بأن للحواس سلطاناً لا يقهر، وأنا أحترم هذا السلطات. رحت أنتظر اليوم الذى يستبعد الترف فيه حواس رحمة.

- ينقصنا.

بتلك الكلمة، تبدأ رحمة حديث كل مساء، كان ينقصها الكثير، طفل صغير، وقد لا يبدو الطفل بهذه الدرجة

من الأهمية أمام الآخرين، غير أن أؤكد أنه أهم ما فى الحياة. الأطفال هم السبب الوحيد لمواصلة الحياة، كل الناس لا تطب سوى ذلك، وعندما يقول أحدهم، إنه يود أن ينجب من يرثه أو يحمل اسمه، أو يكون امتدادًا له، فهو كاذب. الصدق الوحيد، أ، نقول أن منظر الأطفال، خاصة عندما يكونون فى الثانية أو الثالثة من العمر يبلغ أقصى درجات الجمال البشرى، إنهم يصبحون مبررًا قوياً للحياة عند آبائهم وأمهاتهم. آه. مواصلة الحياة. هلى تفهم معنى الكلمة. لأكررها، مواصلة الحياة.. حتى لو سرقنا أو نهبنا أو قتلنا. إن ذلك لن يكون نابعاً من الرغبة فى العذاب أو حب الغير. بل من أجمل صور الحياة وهى تنفجر فى جزء صغير منك، طفل رائع يعبث بيديه فى الهواء. ينطق الحروف مكسرة، هشة، متآكلة، وهو لايدرى أى شئ عن هذا العالم.

فى أول المساء، تبدأ رحمة حديثها عنه، طفلنا، أهم أطفال الكون، فى البداية تمنحه أسماً، لا أعرف لم كان الطفل فى حكاياتها ذكراً، لم تتصوره فتاة أبداً، تتحول رحمة إلى خالق، تعطيه صفاته:

- أبيض فى لون الحليب، طول عود السرو.

هكذا كانت رحمة تقول.

الليل يتقدم، وهى ما زالت تتكلم، تسرع الكلمات فى فمها، ويخيل إلى، للحظة ما، أن الطفل معنا، يجرى، يلعب، يحرك يديه فى الهواء، ليلنا مفعم بالصمت الذى يحدثه بكاء طفل يطلب أمه.

ألوح بيدى يائساً، أحاول أن أطلب منها السكوت، تصبح المرارة جبالاً فى القلب، أقول لنفسى، فلتتكلم، فكل ما فى هذا العالم، له نهاية ما على أى حال.

وهذا ما يحدث كل ليلة. إن الكلمات فى فم رحمة، تصبح كسولة، مسترخية بليدة، بطيئة الخروج، وتبتلع لحظات الصمت كل الكلمات فى فمها، فتصمت:

- تصبح على خير يا سى خلف.

رائحة النوم فى كلماتها، أرد ببطء:

- وأنت من أهله يا رحمة.

* * *

لهفة ما بعد الأوان

ـ ٢ ـ

أصبحت أرى حياتى الآن، من خلال وضوح مؤلم، لا مفر منه أبداً، وإن كان قد أتى، بعد فوات الأوان، الذهاب إلى المشايخ فى البلاد البعيدة، تحمل الكى بالنار، فوق الظهر، فى أكثر من موضع، فى منتصف الرأس، فوق الظهر، على الساقين، تحملت الكثير:

- لعل وعسى.

- كنت أقول ذلك لنفسى فى كل مرة، إن الأمل لا ينضب فى قلوبنا أبداً. حتى آخر لحظات العمر، ثمة أمل ما. حاولت وحاولت، لم تكن المحاولات تمرداً وعصياناً، بل كانت استسلاماً مطلقاً.

إن نضوياً هائلاً أمتص الرغبة فى الحياة بداخلي، ولكن جسمى يواصل حياته، حتى أثناء نومى، الدم يدور فى العروق، المعدة تمتلئ بالطعام فى مواعيدها، تنمو أظافرى، يطول شعرى، تنبت لحيتى كالمعتاد، يتصبب جسمى عرقاً

بالليل. وفى لحظة ما. صباح الغد على الأكثر، أفاجأ بعينى تفتحان دون إرادتى، أستيقظ من النوم، كى أرى الحقيقة التى لا أود أن أراها، وسوف أعرف، فى هذه اللحظة، أننى على الرغم من رغبتى فى الموت، فأنا مازلت - كما يقولون - على قيد الحياة.

حالتى مغلقة بجو من النبل والاشفاق والرغبة فى التضحية وان كان ليس هناك ما يضحى به منى. المطلوب من رحمة كثير، إن تضحى بحياتها، إن العالم ينقض علينا من خلال مطامحنا، ثم يرغمنا، إن عاجلاً أو آجلاً، على دفع الثمن، ويكون ثمناً مؤلماً باهظاً.

هذا ما أقوله أنا، خلف، وما تقوله عينا رحمة.

كل ما فى حياتى يشير إلى أسفل، رحمة هى الجرح والألم والبلسم، متاهة الليالى وبحر الخلاص. فى عينى رحمة- رغم فشل كل ليلة - يبدو ذلك المزيج الذى يفوق الوصف من الأمانى القديمة والرغبات. وعلى امتداد ما مر من عمرنا معاً، ليال وأيام وأسابيع وشهور وسنوات، كان عندى إحساس ما. نابع من حياتنا هنا. ومن وجود رحمة

معى، إن الأمور ستحل فى النهاية، وهذا ما دفعنى إلى الجرى والتعلق بالآمال الكاذبة.

يأتى الليل، أشرب نفسى بلا رغبة، عذاب الظلام، رحلات الشك واليقين، الإبحار فوق أجنحة الكلمات، فى بحار بلا شاطئ آخر، وفى وسط هذا العالم، لم يبق لى سوى رحمة، أقتربت منها واقتربت منى، نمت بجوارها ليالى طويلة شحيحة المتعة، دخلت عليها الحمام وهى عارية، جريت وراءها والفوطة فى يدى، كى أجفف لها جسدها الذى تنز منه مياه الاستحمام، قبلت شفتيها وعليها بقايا طعام، بكيت على صدرها، قلت لها ما لم أقله لأحد أبداً، ما أخجل منه، أعترفت بين يديها، كانت الوحيدة التى تحدثت معها عن عجزى. تبدو قانعة، تحسست بيدى جسدها وهى فتاة صغيرة، أخذتها فى أحضانى وقد امتلأ جسدها وأصبحت امرأة مكتملة الأنوثة. فى الليالى الأولى، كنت أود أن أبدو فى نظرها رجلاً مسربلاً بالأسرار. إن الناس يرتدون، أفخر ملابسهم، كى يقابلوا ضيوفاً، حتى وإن كانوا فى المنزل، لم يكن فى حاضرى ما أحكيه لها. عهد الصبا والشباب هو

أزهى فترات العمر، كنت أعتمد على ذاكرتى، رغم جدبها الشديد وافتقارها إلى التشوق فى الحديث.

أصبحنا أكثر تفاهماً، كنا نجلس معا، لا نتكلم، لا تنفرج الشفاه، لا يخدش الصمت همس أو حس أوحركة. ومع هذا، كنا نشعر أننا متفاهمان، فى كل أمور حياتنا، ابتداء من منزلنا حتى أكثر الأمور عمومية.

قررنا، إنه من الأنسب، أن ينام كل منا بمفرده، فى حجرة خاصة به، كل ما أذكره الآن. أننى وجدت نفسى فى حجرة بمفردى ذات مساء. الفراش الكبير البارد، جو الغرفة التى بدت لى واسعة، ثمة ظلام إحتوى بداخله برودة الحجرة. راودنى فى هذه الليلة، شعور أننى يتيم، وأحسست بمعنى الترمل، وبإحساس النبات الذى يقلع من أرضه، ويلقى به بعيداً، فوق حجر، كى يذوى ويموت، افتقدت رحمة، بدأت أشعر بفراغ يحبط بى من جميع الجهات. كنت أمد يدى، وكانت تؤكد لى، إن الفراغ يطل على من كل ناحية. لشد ما كان حنينى، لشئ ما. لا أدريه على وجه التحديد. وتذكرت، فى هذه الليلة همسنا معاً، أنا ورحمة، فى أول مرة أختلينا فيها بمفردنا، تكلمنا كثيراً. كان الحديث عن أشاء معروفة

لنا، غير أننا تذوقنا لذة قولها على الألسن، ونحن ننطق بها، الحديث المألوف، عن الاسم والسن ومسقط الرأس، أحب الألوان، الأمنيات المؤجلة، ذكريات الشباب الأول. كان صوت رحمة هادئاً وادعاً، كصوت قادم من ديار العشق والمحبة، وكان صوتى مزيجًا من الراحة والحدو والاشتهاء والتحفظ.

كنا سعداء. ولكن أين ذلك منا الآن.

فى الليلة الثانية، بدت لى غرفة نومى باردة كئيبة، وعندما مددت جسمى على السرير، تصورت أن الملاءة مبتلةبفعل الطل، مددت يدى، تحسستها، لم تكن مبتلة، وعندما نمت فى السرير، بدا لى أنى أضع جسدى على سطح من الصلصال البارد. احترت، لم أشعر بذلك فى الليلة الماضية، الحجرة كانت حجرتنا، كانت مضاءة ومفروشة وتعبق برائحتنا. إن حرارة أنفاس رحمة، ودفء حواسنا تخلق جواً من الشفافية والوهم والضباب، يخفى عن أعيننا حقائق الأشياء.

بدأت أفكر، وأحدث نفسى طول الليل، لم أكن أنم، كنت أنصت لليل العزبة وصوت تقلب رحمة فى سريرها فى

حجرتها. فى كل ليلة، أتصور أن وجود رحمة معى أمان فى حد ذاته، وكنت على وشك أن اجرى إليها، وأناديها، وجودها كان عذاباً جسدها الشاب المتفجر، الذى يريد،، شبابها وجمالها، يبنوع حزن. أخذت أروض نفسى على النوم بمفردى. فى أكثر الليالى، كنت أقوم، بعد انتصاف الليل، أرتدى ملابسى، أخرج بلا هدف، هروبًا من الذهاب إليها والنوم معها، آه وفى الليل، تحلو تعزية النفس، إنى أقول لنفسى، ما من رجل فى هذا العالم يموت، ما من رجل مهما صغر أوقلت قيمته يموت، ما من رجل فى هذا العالم يموت، ما من رجل مهما صغر أو قلت قيمته يموت، دون أن ينقل للآخرين جزءاً منه، حركته، حكمته، ابتسامته، ما من أحد يترك عالمنا دون أن يخلف شيئًا ما. يضاف إلى الناس جميعًا. ما كنت أعنى سوى رحمة، كنت متمثلاً فيها، أعيش فى داخلها، كانت رحمة، معجبة بى، فأنا أعنى لها، المنزل والمستقبل وعذاب الليل، ونقاط العرق فى السرير والخوف من المجهول، وكلما نظرت رحمة إلى، أدركت، أن الذين لم يفقدوا حماسهم للدنيا، رغم الاحباط والفشل، أبطال بشكل ما.

فى رحمة بطولة، نوع من البطولة التى لا يتحدث عنها الناس كثيرًا.

وتتحول حياتى كلها إلى أستفهام جارح، أوجهه إلى نفسى: هل سبق أن عرفت المرأة، أقصد كرجل، أتذكر وأحصى، أسترجع العمر كله، تبدو لى الذكريات شاحبة، أقف طويلاً أمام سمارة، وأضحك منها ومن نفسى ومن الدنيا.

سمارة فتاة ريانة العود، لينة، رائعة، تعمل فى أحد حقول العزبة، خلف شاب خجول. أدرك أن كل ما فى العزبة ملكى، سمارة. بين الشفتين ترف الكلمات كالطير الحبيس. السير وقت القيلولة بين الحقول، متعة خاصة لى، تحت شجرة عجوز، تقف سمارة، تشير لى بيدها. وقفت فى مكانى. اليدان ممدوتان كالأمل. وأطل من العينين الناعستين والجسد المتفجر والنظرة اللينة، نداء حار، لم أتحرك. وتذكرت أن أمى قالت لى، إن لحظة القيلولة، هى وقت ظهور الجنيات وسط الحقول.

- تعال يا سيدى خلف.

خفت، اتجهت نحوها، نامت يدى فى لحمها الدافئ، اقتربت منها، جلست على الأرض تحت الشجرة، تربعت، وضعت رأسى على فخدها، أحسست عن قرب بليونة ودفء تجويف البطن، مدت يدها، مرت بها على وجهى، خيل إلى، أنها تمسح عنه الألم والتعب وآثام الشباب.

- سمارة.

- مالك.

لم أكمل حديثى، مدت يدها، خلعت جلبابى، وخلعت جلبابها، أشارت إلى أن أكمل خلع ملابسى، وأكملت خلع ملابسها بسرعة، الصدر والبطن و الفخذين، مساحات من اللحم البرونزى اللامع، شاهدت غرابًا أسود يطير فى الجو، فأسرع فى طيرانه، واقتربت منا سحلية فولت هاربة، وخرجت من مياه القناة ضفدعة، فعادت إلى الماء، العالم كله مساحات من اللحم الدسم الدافئ، نقطة عرق تنزلق من الكتف إلى ما بين النهدين، شفتاها تتحركان، الجسد يطلب العطاه. كتلة اللحم تقترب، بدا لى الأمر مفزعاً، وغنت فى داخلى أصوات مبحوحة، وانسالت فى الأعماق قطرات دمع دافئة. وقالت لى أمى ذات مساء. إن ذلك حرام، وخوفتننى من

جنس النساء، وحكت حكايت، أصابتنى بالغثيان، غير أنـى كنت أود أن يحدث هذا الحرام، كنت أتوق إليه بكل ذرة فى كيانى.

- لا يا سمارة.

- ياه... ليه؟.

ماتت فى عينيها رغبة وظمأ وجوع، ومات بـداخلى احساس كان قد استيقظ لتوه، ولم أعشه بعد ذلك أبداً.

- ٢ -

كان أبى يقول لى:

- الرجولة كنز يا خلف

- يعنى إين كنز؟

- شوف يا سيدى

كان يتكلم كثيرًا عن الرجولة والرجـال، الرجولـة مرتبطة فى ذهنه بالذكورة، والغزارة الجنسية، الحديث عـن غزاوته وعلاقاته بسبب له نشوة خاصـة، الرجل فـى نظـر أبى، هو من يعـيش حياتـه بـالطول والعـرض والعمـق

والإرتفاع، هكذا عاش أبى، رحل كثيراً، أكل وشرب كثيراً، النوم بالجسد فقط، الروح فى حالة يقظة دائمة، زوجاته وخيلاته بعدد شعر الرأس، سافر وعاد.

كان يقف بخشو واحترام أمام كل مظاهر الاخصاب فى العزبة، يسعد ينتشى عندما يشاهد ثوراً يعتلى بقرة، أو كبشاً يحتوى شاة تحته، أو حماراً يفك قيوده ويجرى خلف حمارة. إنه يتوقف، يلمع فى عينيه بريق، يتابع الأمر حتى يتم، يربت بيده على ظهر الثور، يأمر بعليق مضاعف له، ثمة أصوات فى العزبة تسعده، نهيق حمار، صوت أنثى تطلب ذكرها فى ود، شكل الأرض وهى تطلب الماء وقد تشقق وجهها، طنين النحل بين الأزهار، رائحة الحقول فى الربيع، الرجال وهم يستحمون فى الترعة الصغيرة، صباحاً، ويتطهرون بصوت مسموح.

كان ذلك يفزعنى، أشعر بداخلى إحساسًا لا طعم له، كنا نجلس أمام الدار، الوقت مساء والزمن ربيعى له عبق خاص، كنت أجلس بجواره. وقد راح يحدثنى عن مستقبل حياتى، الأيام المقبلة والأرض والناس والزواج، قال إن

زوجتى لا بد وأن تكون نتاية، أذكر أننى فزعت من هذه الكلمة التى رددها.

- نتاية من التمام.

يحسب فى ذهنه كل الأمور، العائلة التى يجب أن أناسبها، صفات الزوجة، طعام كل ليلة فى الأسابيع الأولى، الدورس التى سأسمعها منه، عن التعامل مع النساء، الوصفات الخاصة، كنت أذوب خجلاً من حديثه، لم تكن عندى الجرأة كى أطلب منه أن يكف عن هذا الحديث.

والدى يواصل حديثه:

- وبعد الزواج بشهر، أو شهرين.

بصمت قليلاً.

- كل شئ متوقف على شطارتك.

يحكى والدى.

ينقطعه المرض الشهرى، تخبرنى زوجتى بذلك، لن تقول أنها حامل، بل ستقول ذات صباح، والخجل يصبغ وجهها بحمرة داكنة، إن موعد العادة أتى ولم ينزل الدم بعد،

أفهم الباقى، الحديث عن رغبات غريبة، أكلة فسيخ وبصل أخضر، أو شقة بطيخ أو نصف تفاحة فى غير زمانه، أعانق المستحيل، أسافر إلى بلاد السند والهند، أحضر لها كل ما تطلبه منى، إنه ابنى الأول. الأبن الأول له طعم خاص مختلف حتى لو أنجبت ألف ابن بعده.

- الابن الأول يا خلف، بيكون بعد كدا أخ وصديق..

تمر الأيام - يكمل حكايته - ينتفخ البطن، يتكور، ينداح إلى الأمام، يكبر الأنف، تزوغ النظرات، تتضخم الشفتان، تشكو من الدوخة والغثيان، تصفر أطراف جسمها، وذات مساء. (أكد لى أبى، أن الولادة لا تتم عادة إلا فى الليل، آخره أو أوله، بالتحديد، لحظة ميلاد الليل، أو ميلاد النهار) تكون زوجتى نائمة على السرير، تئن وتتوجع وتتألم، أذهب كى أحضر لها الداية، الألم يزداد، يرغمها على أن تفتح ساقيها الرائعتين، يظهر بين الساقين رأس طفل صغير، وقد كساه شعر أسود متناثر، الآخرون وما أكثرهم، يلتقطون الطفل الغالى، ينتهى المشهد بفرحة، أنين حلو فرح، يتذكرون أننى موجود فى مكان ما، يحضرون إلى، يطلبون منى أن ألقى نظرة عليه. أكد بى، أن المولود الأول، لا بد وأن يكون

ذكرا، بعد ذلك تأتى البنات، قاعدة ثابته فى عائلتنا، هذه القاعدة ثابتة فى عائلتنا، هذا القاعدة روعيت طوال عشرة أجيال كاملة، يؤكد الجميع أن المولود يشبهنى، إنه جزء منى، يخصنى وحدى، دون الآخرين.

بعد وفاة أبى، كثيرًا ما تمثلت حكاياه لى، وعشت من جديد روعة حكاياه، وأكدت لى الأيام، استحالة حدوثها فى مكان آخر من العالم، سوى عقل المحموم، فى كل مرة، كنت أتذكرها، الذكى تظل سرى الخاص، مرة أو مرتين، اشتركت رحمة فى هذا، ولكنه لم يتكرر كثيرًا.

ـ ٣ ـ

كانت رحمة تحمل فى عينيها نبوءة الأيام والليالى، نبوءة تلاها شحاذ مفقوء العينين ذات مساء:

- وتمر بالعزبة شدة عظيمة، تأتى على الأخضر واليابس. وتنتهى الحكاية.

هكذا أعيش فى مواجهة رحمة، وقد ضاق كل منا بنفسه ويرفيق عمره وبالعزبة، الضيق والتبرم لا يزالان فى ذهن كلينا، لم نقله، لم يتحول بعد إلى أحرف وأصوات

وكلمات، غير أنه أعطانى إحساسًا بالانتهاء، ورحت أعانى الرغبة فى البوح ليالى كثيرة، لم تكن الأمور واضحة فى ذهنى، العزبة ليست أرضاً امتلكها، بل هى حياتنا معاً، إننا كالسمك، لو خرجنا منها لحظة فسنموت. إن الإقامة فى مكان ما مدة طويلة، حتى لو كان هذا المكان سجناً، تتطلب قدراً من البطولة والشجاعة، فما بالك باقامتى فى هذا المنزل، طوال المدة الماضية، أنا ورحمة، كنا وحدنا، ومهمنا زرنا الآخرين، استقبلنا زواراً، سافرنا، ذهبنا إلى طنطا أو دمنهور، دخلنا السينما، شاهدنا المسرح، سمعنا الراديو، دخلنا بيوت الفلاحين، مهما فعلنا طوال يومنا الطويل، فتبقى دائماً لحظة أخيرة، عذاب طلب النوم، مقاومة الأرق، البحث عن حبوب منومة، فى هذه اللحظة، نكتشف أننا بمفردنا، وجها لوجه، إننا لا نجد الكلمات بعد يومنا الطويل، نحتمى معاً بصمت الجراح.

ومع مرور الأيام البطئ، استدار الأمر بداخلى، وأخذ شكله الأخير، يجب أن نرحل عن هذا المكان، بدا لى الرحيل، مساحة يقين نقف عليها، اقتربت من رحمة، بدت لى أمرأة محطمة تقدمت بها السنون، حدقت فيها، أحسست أن

بداخلها نوعاً من السكينة، أنعكست عليها، فمنحتها صبرًا لا ينفد، وأصبحت نبرة صوتها عذبة، عذوبة شجية تبعث على البكاء.

- رحمة.

- يا روح رحمة.

كان صوتها يشبه البكاء.

- عايز أكلمك فى موضوع مهم.

كنت أتحدث بانفعال، وكانت دقات القلب تنفض عنه صدا الأيام، وقرأت فى عينيها حزنًا قديماً.

- أى موضوع؟..

جلست، وضعت رأسى على فخدها وقلت:

- موضومع يخص حياتنا كلها.

رحت أتكلم، لا أذكر الآن ما قلته لها فى ذلك المساء البعيد، غير أنى قلت ما يمكن أن يقوله رجل سئم هذا العالم، وتعب منه، وود لو يستريح أخيرًا.. اندفعت العبارات من فمى، مختلطة، مهوشة، متداخلة المعانى، غامضة، ملفوفة

بالضباب، ما كنت أدرى عن الأمر شيئاً، وكذلك رحمة، كان حديثى طويلا، غناء رجل متعب القلب، وعندما وصلت إلى الجزء الأخير من حديثى، وفى اللحظة التى كان يجب أن أبلغها فيها قرارى بترك العزبة، والرحيل، لم أقو على ذلك، كان الأمر صعباً. قلت لها: أن قضاء أسبوع فى مكان و احد يفقد المرء شجاعته فى التعامل مع عالمنا، تذكرت أننى قضيت سنوات طويلة هنا. لم يكن لكلمة الرحيل وجود بيننا، لم تخرج من بين شفتى، ولم تنطق بها رحمة، وإن كانت ظلالها، فرضت نفسها علينا طوال جلستنا، خرجت، طفت بالعزبة، كنت كمن يشاهدها لأول مرة، إنها صغيرة، خطوة أوخطوتين وتنتهى الحارات الصغيرة الملتوية، حتى الحقول، التى ما فكرت فيها، إلا واقترنت فى ذهنى بمعنى الرحابة والاتساع بدت صغيرة كأنها سجن، وفى كل خطوة، كنت أقول لنفسى، ما زالت هناك حارة أخرى لم أذهب إليها، الدوار والمكتب والتندة وماكينة النور، لم أرها بعد.

النفس تفرح، مان لم أفعله بعد كثير، المساء لا يزال طويلاً أمامى، شفتاى تتحركان وأصابعى تتعانق، إكتشفت أننى أحدث نفسى، وقد أفاجأ بأن أحد الفلاحين أو العمال

ضبطنى متلبساً بحديث النفسى، أصاب بفزع، وبعد أن يمر على، أقف، أستدير، فأراه واقفاً ينظر إلى، وقد اعترته دهشة، يضرب كفاً بكف.

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

رغم خوفى من الآخرين، كان يحدث هذا كل مساء، أحدث نفسى، كثيراً، يبدأ الحديث بكلمات تدور فى الخاطر، دون أن أحرك شفتى، أنسى، وتتحرك الشفتان بعبارات هامسة همساً لا أسمعه، أنطلق، تستغرقنى المحاولة، يعلو صوتى، تتحرك يداى، أتوقف كأنى أخاطب شخصاً أمامى، وقد أصيح. وعند الصياح، أنتبه إلى نفسى، فيحمر الوجه خجلاً، وأتوقف، ألتفت إلى كل الجهات، أحمد الله، إن أحداً مالا يرانى، أقسم ألا يحدث هذا أبداً، ولكنى أفعله بعد دقائق قليلة، أقول لنفسى:

- يا ويلى من الأيام القادمة.

سرت كثيراً، كانت الأشجار تبدو لى فى الليل، كأنها أقربائى وأصدقائى وأحبابى، وكأنها تهب إلى فرحة سعيدة، شعرت أن الكلمات التى قلتها لرحمة كانت تجثم فوق روحى،

وكان فى ذهنى معنى واحد. اننى فى الصباح، لا بد وأن انفذ ما قررته بنفسى.

وعندما عدت إلى المنزل، كانت رحمة تقف فى الشرفة البحرية، الليل فى أوله، والأشياء يحيط بها غموض ساعة الغروب، حيث تبهت ملامحها الخاصة وتذوب البيوت والأشجار والسماء، تغتسل فى عينى رحمة، وعلى وجهها، قرأت السهاد والسهر وألم الانتظار، اقتربت منها. طوقتها بيدى، شربت من عينيها ألفاظاً لم أوقن معناها، غير أنى أحسست فى سواد عينيها، خيبة أمل وحنيناً مبهماً، وسألت نفسى:

- أما لكل هذا من نهاية؟!.

* * *

لم ننته بعد

- ١ -

يحكى أنه حدث فى سالف الزمان، أن كـان هنـاك ملك، لم يولد له ولد، وقد دعى آلهة زمانه، أن يهبوه ولـداً، ورأى فى الرؤيا، أنه سيولد له ولد، غير أنه سيلاقى حتفـه على يد تمساح، أو حية أو كلب، وذلك بعد أن يكبر ويـتعلم وينضج، ثم أتى الولد، فجعل الملك اقامته فى بيت كبير فـى الصحراء. كبر الطفل، اشتاق إلى الحرية، طلب الخروج إلى أرض الله الواسعة، رفض والده، ولم يكن يستطيع أن يخبره بأنه مقضى عليه بالموت على يد تمساح أو حية أو كلب، ألح الشاب وعندما هدد والده بالانتحار، أجيب إلى طلبه، إبقـاء على حياته.

لف ودار - تحكى رحمة - وعاد إلى والده سليماً أكثر من مرة، أقنع والديه، بأن قراءة الغيب وهم، وقال ثلاثـتهم ذات مساء:

كذب المنجمون ولو صدقوا.

وبدا الملك سعيداً، ستة أسفار قام بها الشاب وعاد سليماً، الدنيا تضحك فى عينيه، غير أنه فى السفر السابع. مات. وكان موته بسبب لدغة حية، كما كان مقدراً له من قبل.

تقول رحمة:

- سبحان من له البقاء وحده.

وأقول أنا، أن الحديث عن هذا الموضوع، مثل موج البحر، الذى يرقد تحت شرفة شقتنا، الجايات أكثر من الرائحات فيه. حدث أهم تغيير فى حياتنا. تصرفت فى أرضى بالبيع أو الإيجار، القليل بقى للزراعة، يتولاه ناظر العزبة، أغلقت منزلنا ورحلت إلى الإسكندرية، فى شقة صغيرة، مكونة من أرب غرف ضيقة، أشعر بداخلها أنى حبيس، الاحساس بالغربة يزداد يوماً بعد يوم. وقالت لى شوارع الاسكندرية: إننى لن أكون فى يوم من الأيام جزءاً من هذا البلد، اقتربنا من بعضنا البعض، رحمة الآن، صديقتى ورفيقتى وكل حياتى.

رحمة يا حياتى - كتبت لها من الاسكندرية - إنها حياة واحدة نحياها، ثم نموت بعد ذلك، مرة واحدة نعرف الحياة بكل ما فيها، ثم نمضى لكى يأتى غيرنا، هل تدركين معنى ما أقوله، ومع مضى الزمان، فإننا نزداد بلادة، ويزداد إحساسنا بالتعب، ونفقد مع مرور الأيام البطيئ، أى موهبة للإحساس الصادق، ولا يعود يربطنا بالحياة سوى أننا نقوم من النوم فى أوقات معينة، نتناول الطعام، نتحدث عن أنواعه، إننا نأكل بسرعة، ننظف أصابعنا من الدسم العالق بها. نخرج فضلات الطعام من بين أسناننا، ثم نغفو، تتحول الاغفاءة إلى نوم، نصحو وننام، إننا نفعل كل هذا، لأننا لا بد وأن نفعله.

فى السنوات الأخيرة، أصبح السفر إلى الإسكندرية أحدى عاداتى، كنت أحب هذا المدينة، وكنت أقول لنفسى، تلك هى النهاية، ما أعيشه هو حلاوة الروح، التى تسبق السقوط.

حضرنا إلى الاسكندرية، ومعنا أفراحنا اليتيمة، ومكابدات الألم الصامت، وجراح العمر كله، الإخفاق والفشل والعجز، كنا على أبواب كهولة مبكرة، تلك المرحلة الباهتة

من العمر، ورغم الكهولة والعجز، فثمة آمال وأمان تدفء القلب العجوز، وتمنيه بأيام سعيدة قادمة.

لن أنسى ذلك أبداً.

يوم رحيلى عن العزبة، ما أفعله لم يحدث من قبل، ما من رجل فى الدنيا بترك عزبة بكل ما فيها، لكى يعيش منزويًا فى مدينة بعيدة. كان من الصعب على أن أشرح الأمر للناس، قبيل الرحيل بأيام، بدأت أقرأ فى نفوس الناس معانى جديدة، لم أرها من قبل، طلبوا منى أن أكتب لكل منهم عقد إيجار، قال لى أحدهم، لا أحد يضمن الزمن، الكلمات تحمل أكثر من معنى، قرأت مصيرى فى عبارته، هجمت عليه، هددت الجميع، لوحت لهم بقبضة يدى، قلت لهم: لن أترك العزبة أبداً، ولن يحصل واحد على شبر و احد من الأرض، و أننى باق لهم مهما حدث، فكرت طويلاً، لم أنم. فى الصباح، قررت أن أحول كل لحظة تمر بى، إلى متعة جديدة، لا بد وأن تستمتع بكل دقيقة تمر، التمع فى ذهنى هذا المعنى الطارئ، أن أبيع جزءاً من الأرض، لا يؤلم الفلاح سوى أن يفكر فى بيع أرضه. الأرض بالنسبة لعائلتنا هى الحبيب والملك، والمسافة بيننا وبين الآخرين من الناس،

عندما وقعت أول عقد بيع، شعرت بالخوف، من ملامح وجه أبى المتوفى منذ سنوات.

إنزعج أغنياء الناحية، عرض على بعضهم أن يساعدنى، كانت هناك رابطة بيننا، رغم الخلافات والمنافسات، لم يكن هناك مفر من البيع، كان لهم مطلب واحد أن يكون البيع لأحدهم، فملكية الأرض، حق لهم، دون سواهم، أدهشنى أن تقدم أكثر من فلاح من العزبة لشراء الأرض، رفضت، شعرت بالهوان، واكتشفت أننى لم أحب أحداً منهم، كنت أبتعد عنهم بكبريائى الخاصة، غير أنهم نجحوا، ببطء وفى غفلة منى، ذهب أبناؤهم إلى البنادر، تعلموا. رطنت السنتهم بلغات البلاد البعيدة، وضعوا على الأعين نظارات طبية لامعة، ودخلت كلمات عن المكابدة والكبرياء والعناد قاموس مفرداتهم، كنت أخافهم.

- ٢ -

أيامى الأولى فى الإسكندرية.

التحول إلى شخص آخر، محاولة إبهام الناس أننى تركت القاهرة بالأمس، وحضرت إلى الإسكندرية فى اليوم

التالى، إسقاط سنوات العزبة من حسابات الربح والخسارة، أخذت رحمة من يدها، طفت فى شوارع الالسكندرية الخالية المهجورة. الفصل هو الشتاء، الخروج من شارع لشارع. بدت لى شوارع الاسكندرية صاعدة هابطة كسنوات العمر، ملتوية كخيبة الأمل. واكتشفت رحمة، أن فى الاسكندرية شخاذين ومجاذيب ينتظرون المهدى المنتظر، وإن بها بحراً يغسل آثام العمر، قلت لها: آه لو ينق أسفلت الشارع، أو جدران البيوت، أو موج البحر الأزرق المغسول، لقال الكثير عن أيامنا التى ولت ولن تعود. شاهدنا الموج يتكسر ويموت على رمال الشاطئ. سمعنا كلمات السكارى المعربدة فى الشوارع الليلية، قرأنا على وجوه العشاق أحلام السنوات القادمة، رأينا وجوه فتيات الليل المتعبة والأصباغ المترنحة على ملامح الوجوه. كنت سعيداً بوضعى الجديد. وكنت أتحدث مع رحمة عن حياتى. قلت لها الكثير. كنا نقضى الصباح بطوله فى شقتنا، ونخلو مع نجوانا فى المساء. يصبح من الممتع أن نغادر عشنا الصغير. نغوص فى قلب المدينة. وفى الشوارع، حيث تبلغ حركة المرور ذروتها ويشتد الزحام، وتضاء أنور الليل. تثب قلوبنا فى الهواء

النقى، وسط ضوضاء الحياة فى المدينة وحركتها، ينقشع الأسى والمرارة عن الاذهان، تمتلئ الصدور بالاثارة الجزلة والنشوة المرحة. كنا نبدو وكأ، مشكلات الحياة قد حلت، وكأن أولادنا ينامون الآن فى المنزل. فى حجرات مزدحمة من كثرة عددهم، يحملون بغد سعيد، بدا لى، فى لحظات، أنه لم يبق لنا، نحن العشاق القدامى، سوى أن نتجول فى الشوارع، سعداء بالانقياد لأى إحساس عابر يوحى به إلينا مهرجان الليل فى المدينة الصاخبة، الإسكندرية مأوانا وسعادتنا. الاحساس الحاد بالحركة يسعدنا وينسينا. أحب بحر الإسكندرية الذى قيل لى فى طفولتى إنه بحر بلا شاطئ آخر. الذهاب إلى أقرب مكان أستطيع أن أشاهد فيه البحر متعة يومية. عندى حنين قديم للبحر، بكل ما فيه من تألق وحيوية. مهما فسدت أشكال الحياة وغدت غير محتملة، البحر كفيل بتطهيرها وغسلها وإعادتها إلى شكلها الأول. إن منظر البحر، الزرقة الغامقة التى تلتقى عند حدود البحر، بزرقة خفيفة، فتكونان معاً عالماً غريباً، يشعرنى بروعة الحرية و الانطلاق والتحليق. الليل فى الإسكندرية ليس وقت الهجوع والنوم والراحة. الكلمات والحكايات فى شقتنا

الموحشة قوارب نبحر بها ونسافر سنوات بعيدة. مناجاة الليل. البوح بما فى الصدور. البوح لا يعرف الحدود. تتلاشى الفروق بين ما يقال، وما يعد سرنا الخاص. فى ليل الاسكندرية قلت لها، ما لم أقله من قبل. لم أكن أعرف ما اريده. وأتت العودة إلى العزبة، لتضع للحكاية نهاية من نوع فريد.

- ٣ -

لا بد من البكاء فى الاسكندرية، وإن طال العذاب، الاسكندرية أمامنا والبحر من خلفنا ولا مفر. لم تكن الاسكندرية عالمنا ولا حياتنا، انقشعت سعادتنا الطارئة عن إحساس بخيبة الأمل. العودة إلى العزبة، أكثر الاحتمالات استحالة. لا بد من الاسكندرية. هأنذا أقلل من خروجى، البكاء فى المنزل عزاء جديد، الأحاديث سلوتى، الرحيل على جناح الكلمات، سفر فى كل ليلة. وفى هذا الجو. ازداد حديث رحمة عن الأطفال، كنت قد تصورت أنها نسيت الأمر. كان بودى أن أقنعها بالعدول عنه. بدا ذلك مستحيلًا. فضلت السكوت. كل شئ يموت من تلقاء نفسه، كما يولد تمامًا. عن

طريق السأم والملل وعدم الاكتراث، أو حتى عن طريق العادة، التى هى نوع من الملل المنظم. أحب أن أرى الأشياء وهى تموت، بطريقة طبيعية، تخلى مكانها لتغييرات جديدة، إننا لا نرى فى حياتنا تغييرات واضحة. إن الذين يتحدثون عن تغيرات جذرية، سرعان ما يعودون من حيث بدأوى.

تعرف يا حاج.

تتحدث رحمة عن السر الذى يحدد نوع المولود. ذكر أم أنثى. كانت تؤكد أن نوع المولود يقع على الرجل أكثر من المرأة. زواج الأقارب هو السبب فى كثرة إنجاب الإناث.

إنها تتكلم. صوتها يخفت ويرق، يتحول إلى مناجاة قلب حزين، وأذناه تشربان كلماتها فى ظمأ وجوع. الحديث عن الجنين بلا بداية ويلا نهاية. فى اليوم التاسع بعد الحمل. يبدأ الجنين فى اكتساب مظهر محدد. وفى اليوم الرابع والعشرين، يكون بلا ذراعين أو رجلين. بعد يومين من هذا التاريخ تنبت براعم جديدة للذراعين، وبراعم صغيرة للساقين. نمو الذراعين لا يسير جنبًا إلى جنب مع الساقين. نمو الذراعين يظل دائما أسبق من الساقين. فىنهاية الشهر

الأول. يكون قد تكون جنين كامل. من الرأس حتى القدمين. يبدأ القلب فى الحركة عندما يكون عمر الجنين خمسة وعشرين يوما. ثمة أحداث هامة فى الشهر الثانى. القلب يدق، المخ يعمل، المعدة تفرز بعض عصيرها الهاضم. حال الجنين تتغير، تصبح له عينان وأذنان، أنف وشفتان ولسان. براعم أسنان لينة فى اللثة. الجسم مستدير له بعض العضلات. مغطى بجلد رقيق. يجتاز الجنين مرحلة الخطر. فى الشهر الثالث تأخذ العضلات شكلها وتتحدد شخصيته. ويبدأ اختلاف الجنين الذكر عن الأنثى.

رحمة تتكلم، وأنا أنصت. وككل المحرومين فى عالمنا. كانت هناك أشياء مشتركة بيننا. الانصات لها تجربة مرة. إن أى شخص مهما كانت درجة سعادته فإنه يشعر فجأة، وبدون مقدمات ولو لمرة واحدة على الأقل. إن حياته كلها تتقلص وتتحول إلى نقطة واحدة من الألم الذى لايمكن احتماله أو وصفه.

الرضاعة الطبيعية - تقول رحمة - هى أفضل الوسائل لتغذية الطفل. لبن الأم هو الغذاء الطبيعى لأى مولود. وهو لا يحتاج إلى تبريد أو تعقيم. فى الأيام الأولى

يرضع الطفل دقائق معدودة يعود بعدها إلى النوم. وخالال الشهرين الأولين، تتحسس الأم الذكية طريقها لمعرفة المدة التى يجوع الطفل بعدها كانت رحمة تقول. إنها ستقوم بإرضاع طفلها بنفسها. الحديث يمتد إلى حمام الطفل. تبوله وتبرزه ومكان نومه وساعات يقظته.

تقول رحمة، إن أول حديث سيصدر من طفلنا، صوت استغاثة، صرخة، بكاء. أؤكد لها، إن الصرخة بسبب الجوع. قالت. إن الجوع ليس هو السبب فى صراخنا ونحن أطفال. تؤكد رحمة. أهمية تناول طعام جيد فى فترة الحمل. رؤية وجه جميل أثناء فترة الحمل. ضمان لإنجاب طفل جميل. هنا فقط. كنا نختلف. كنت أقول. إن الطفل سيكون شبيهًا بى. وإن قوانين الوراثة تؤكد هذا. رحمة تثور. الطفل الأول. شبيه لها هى. أما الثانى فشبيه لى أنا.

فزعت من حالة رحمة، هالنى الأمر، كنت أتصور أنها نسيت موضوع الطفل والحمل والإنجاب. غير أنى نسيت أنه فى حبات القلوب تنام أحلامنا. النسيان مطلب مستحيل التحقيق. إن المرء يشعر بالتعاسة إذا فقد الأمل تمامًا. حديث رحمة عن الأطفال يجعلنى أحدق فيها بخوف.

أحاول أن أطمئن على عقلها. أحسست بالوحدة. فى آخر الليل كنت أنام. فى الصباح، يبدو لى الاستيقاظ من النوم. كنوع من الولادة الجديدة. الناس يتحدثون عن النوم على انه موت عارض. وعن الموت على إنه إغفاءة طويلة. فى الليل يستريح الدماغ وتهدأ تيارات التفكير التى تصادفنا خلال اليوم. بعد الاستيقاظ تمتد أحلامى. ثم تعود كى تستقر فى أعماق ذاكرتى. تطفو على السطح ذكرياتليلة الدخلة. الطشت و الدم وآلا م المخاص. البخور والحناء على أطراف الجسد الرائع. السرير الدافئ. الملاءات الجديدة. نعومة الوسائد المحشوة بالريش. تأملت حالى. قلت لنفسى. إن قوتى. إن كان ثمة قوة ما. فى أن أقبل وضعى. وفى أعماق الروح. استكن إحساس ما. بأننى مدين لضرورات الحياة بوجودى. إن سخطاً ينتشر فى روحى. يسمم إحساسى بالدنيا. لا يقلل منه. سوى أن أقرر كل مساء. إنه عند أول فرصة. لا بد وأن أغير حياتى كلها.

الخوف والرعب وسوء الحال. اليوم بمذاق الصبر مرارة. الليل معفر بالهوان. النور متاهة والظلام بحر الخلاص ولكنى أريد الحياة. تلك مشكلتى. ومشكلة رحمة،

التى تبدو، عندما تتحدث عن طفلنا، كالنبى الكذاب، نبى جديد لا يقول سوى الكذب. غير أن أصدق كل حرف جديد يقول هذا النبى.

تعبت. تعبت حتى من سرد قصتى. من مجرد الاستمرار فى سردها. هكذا تبدأ القصص. وهكذا أيضاً تنتهى. لن أقول سوى كلمات قليلة، ثمة رجل مكسور الجناح، خروج من ليل لا نهائى. وسيدخل عما قريب فى ليل نهائى آخر. وكان مروره العابر لا يتميز إلا بما تتميز به الأعمال السخيفة العابرة.

ثمة رجل يقف فى وجه العدم. اسمه خلف.

* * *

يا رحمة.

إلى بسيف أيام الشباب

فأنا وحدى - قال لها - القائل، وأنا وحدى القتيل. ولن يؤنس وحشتك من بعدى. سوى ما يحكيه لكل فى ليالى الشتاء. الطويلة. برك الدماء المتخلفة عن المعركة. ستقول

لك نقاط الدم الكثير. عن بلاط السلطان بحريمه الجمل وحاشيته الشرهة وعبيده وشرفاته الخالية. وسيكون همس عن الليالى الخوالى، فرمانات الباب العالى، أوامر الصدر الأعظم.

الحاج خلف صاحب مملكة صغيرة. السجاد الفارسى من طهران. البن اليمنى من صنعاء. العبيد والذهب والعاج والمسك و الكافرو وريش النعام من أواسط أفريقيا الحارة السوداء. تدليك القديمن بأيدى الخدم. دهان الجسم بالطيب قبل الوصال. ستقول لك الدماء. ثمة حاجة لأن يولد شئ ما. وسأهمس لك بصوت فيه كفر وجسارة الأيام الأولى، هيا نبحث عن شكل يليق باختضارنا البطئ معاً.

ضاق خلف بحياته. إن من يطلب من الحياة القليل لا يحصل على أى شئ بالمرة. فقد الألفة التى كانت تربطه بالاسكندرية وأصبح قضاء الأمسيات مفزعاً. المساء يأتى بغيومه الرمادية، السحب كثيفة سوداء. السماء رصاصية اللون. العتمة تهبط قبل الأوان، والقلب ينبوع حزن. يشعر بالضيق. تصبح كل أمنياته أن يذهب إلى بيته. حيث يجلس فى إحدى الحجرات مع رحمة، تتحدث عن الأطفال، يتحدث

وتتحدث، حتى يأكله الذبول والوهن. السعادة شئ مفزع. فالذين يغرقون فى البحار، أو يحفرون الأرض بأظافرهم أو يبحثون عن الماء فى الصحراء. ليسوا تعساء. التعاسة - وكفانا فلسفة - أن تفتح عينيك فى الصباح، تستيقظ من نومك. لا يكون هناك أمل ما.يرتبط بميلاد اليوم الجديد، فتغمض عينيك مرة أخرى. تستدير إلى الحائط، تحاول أن تنام، ولا تستيقظ إلا لأن كثرة النوم آلمت جسمك.

أمام الأعباء والمرض. السفر يبدو حلماً. الدنيا واسعة، بهجة اكتشاف العالم، فك الطلاسم والأسرار. الدنيا تغيرت، نضبت موارده. نزعت ملكية بعض الأرض. أخذ إخوته كل ما يخصهم من الميراث، تناثرت الأرض الواسعة بالبيعة، الأسعار فى ارتفاع جنونى. فى أيامه الأولى كانت موهبته تبدو فى القدرة المذهلة على جمع المال. الحديث عن الوسائل لا أهمية له. الموهبة الأخرى تبدو الآن، فى قدرته على انفاق أى مبالغ بدا خلف يخفى كل أموره على رحمة. كان كملك فقد عرشه وحاشيته وحتى مبررات وجوده.

فكر فى العمل، ضحك من نفسه. لا يصلح إلا للنوم والأكل والاستمتاع بالراحة. شئ ما ضده يتحرك ويتحرك. وهو ساكن لا يدرى ماذا يفعل.

ها هو خلف يسير فى الشوارع المهجورة، ويحلم بأن يركب طائرة، تدور الأرض من تحتها، تبدو السيارات كالنقط الصغيرة والعمارات العالية كعلب الكبريت.. النزول فى مطارات لا يعرفها. سماع لهجات ولغات بلاد الثلج والضباب.

خلف جالس فى شقته. يقول لرحمة. إن ينتظر النهاية، إنها لا تسمعه، تعيش مع أطفالها، تكلمهم، تناجيهم، تسكنهم، تحضر لهم الثياب واللبن والطعام، ترسل الخطابات إلى المحلات والجرائد، كى تحل مشاكلهم. رحمة لا تسمعه وهو لايسمعها بين الحين والحين. يزحم الهواء صوت ما. صادر من خلف أو من رحمة، الصوت يرن، يخدش الصمت والهواء. ليس ثمة إجابة فيعود الصمت.

- وعاشوا فى التبات والنبات.

وخلفوا صبيان وبنات

وتكمل رحمة. إنها تتكلم ببطء الآن.

- حتى ماتت. ثم مات.

النهاية إذن.

إنه ينتظرها. اللحظة التى يرغب فيها فى الأكل فتخونه معدته. يطلب الجرى فتمنعه دقات القلب. على أن النهاية لا تئأتى مرة واحدة. لا أحد يستيطيع أن يستيقظ ذات صباح، ليجد أن شعر رأسه قد أبيض. وأن قلبه أصبح ضعيفاً، وأن نظرة قد زاغ. إن ذلك يتسلل إليه مع لحظات العمر البطيئة.

ثمة لحظة ما. لا يستطيع أحد أن يمسك بها ولا يعرف كيف تأتى ولا ما هى مقدماتها.

البداية أم النهاية. هو نفسه لا يدرى.

الحقيقة الوحيدة. إن كان هناك حقيقة ما.

إنها تأتى، ولكن متى أو أين، أو كيف. يقول خلف، وتقول رحمة: تعبنا من الأسئلة.

عنتر يزور عبلة فى الثامنة صباحاً
والوجه يصافح الوجة.

الرغبة فى البكاء

فى الثامنة صباحاً، كنت أقترب من الشقة التى كانت عش زوجيتى حتى أيام مضت. توقفت أمام البيت فى صمت ذلك الوقت الصباحى البكر من اليوم. اكتشفت أن العين السحرية، التى اشتريتها وركبتها فى الباب بنفسى، عندما كانت هذه شقتى أنا، قد أصبحت ضدى. يستخدمها الآن من فى الداخل فقط. أما من يقف فى الخارج - وهأنذا أقف بالخارج.. فهو عار أمامها. لا يستره سوى خجله وتردده. والمسافة بين دافعه الفعلى لطرق الباب فى ذلك الوقت. وبين السبب الذى سيعلنه بعد فتح الباب.

إكتشفت أنى قمت بهذه الرحلة دون الاعداد المسبق لكثير من التفاصيل الصغيرة، التى ربما واجهتنى، وما كان يجب تركها للمصادفات. مثلا لم أفكر هل أطرقب الباب بيدى، كاشفاً بذلك أصولى الريفية التى ما تزال موجودة فعلا؟ أم أستخدم الجرس الموسيقى، الذى ينبعث منه صوت مثل صوت العصفور. مؤكداً قدرتى على التطور والتكيف ومسايرة الظروف الجديدة؟ أم أستخدم مفتاح الشقة الذى

أحمله فى جيبى؟ والذى كان - حتى أيام قليلة مضت - رمـــزاً لسعادتى الزوجية. التى لم أنعم بها أيام العمر كله. كما كنت أتوقع. ولم توفر لى العيش فـى التبـات والنبـات، وخلفـه الصبيان والبنات. كما كانت جـدتى تقـول فـى حكاياتهـا العجوز، التى تبدد بها الزمن الطويل، والذى كان يفيض عن حاجتها. ولا تعرف كيف تتصرف فيه. حى يأتى هادم اللذات ومفرق الجماعات، فسبحان من له الدوام وحده.

إن استخدام مفتاح الشقة، يؤكد حنينى إليها. ورغبتى فى العودة إلى دفـء عش الزوجية. بعد أيام الفـراق المـرة الطعم والمذاق. تساءلت: هل إن استخدمت المفتـاح الـذى أحمله معى. سأضمن إن كانت زوجتى لم تغير كالون الباب. بعد تركى الشقة كجزء من التغيير الشامل الذى أدخلته لـى البيت وعلى حياتها من بعدى.

لم أفكر من قبل فى أى الطرق الثلاث أفضل. طرق الباب معناه أن المواجهة ستتم هنا. فى ذلك المكـان الـذى يفصل خصوصية عش الزوجية عن عمومية. السلم الـذى يفصل بيتى السابق عن الآخرين بكل ما يمثلونه حيال ذهنى، وإن جرت المواجهة هنا، ماذا يضمن لى ألا تمنعنى زوجتى

من دخول شقتى السابقة؟ وحدوث المواجهة بينى وبين زوجتى على أرضنا – أقصد التى كانت أرضنا معاً- من الأفضل لكلينا.

جزئيات صغيرة كثيرة واجهتنى عند وقفتى على الباب. فى ذلك الوقت المبكر، والناس من حولى، إما نيام، أو يستعدون للخروج من منازلهم المثقلة بمكعبات من نوم وروائح الليلة السابقة.

قلت لنسى، وأنا أحاول الوصول إلى قرار بسرعة. أن مفاجأة زوجتى وهى نائمة فى السرير. متعبة من وسن الليلة الماضية الطويلة. وتستعد لوسن اليوم كله. سيعطى اللقاء طعمًا خاصاً. وسيمكننا من عبور حالات نفسية كثيرة، يمنها أن تفرق بيننا. وسيفوت على زوجتى فرصة منعى من الدخول إلى أرضنا السابقة. هذا أفضل.بحثت عنى مفتاحى القديم. كنت قد فصلته عن باقى المفاتيح، ووضعته بمفرده فى جيب صغير. وكنت أنقله من ذلك الجيب، عند تغيير ملابسى، إلى جيب آخر. وكان يذكرنى دائماً عند نقله من جيب إلى آخر. بزوجتى وبيتنا وذكرياتى معها. تلك الذكريات التى تولى هاربة إلى الماضى. كان يغلف هذه

الذكريات قدر من الضبات فيجعلها تبدو مثل الأحلام المشوشة التى قد يراها الإنسان وقت نومه. وإن كان يفصله دائماً عن الاندماج فيها، ذلك اليقين الذى يميز الحلم عن الحقيقة.

فى صباح هذا اليوم، استيقظت مبكراً. كان عقلى ما يزال نائماً رغم ضوء الصباح. وكنمت غير قادر على التفكير. بدأ عقل المتعب. يتناول أحداث الأيام الماضية. ليعيد خلقها من جديد، من الذاكرة. كنت فى حالة من الاضطراب ومن النعاس وعدم اليقظة أو الاستراحة الحالمة. وهذا يحدث لى كل صباح تقريباً، منذ أن تركت بيت الزوجية ورحلت.

عثرت على المفتاح، أخرجته، بدا لى صغيراً لأنه كان بمفرده، عرف المفتاح الباب ومكانه فيه بسهولة. ودون تدخل منى. كنت حريصاً على أن أفتح باب الشقة دون إحداث أى صوت. حتى أتمكن من الدخول فعلاً. دون أن تنتبه هى لذلك. حتى تحدث المفاجأة كاملة، عندما أفاجئها وهى نائمة. دخلت الشقة، ظللت ممسكاً بالباب أثناء عودته إلى مكانه الطبيعى حتى استقر فى اطاره. دون أن يحدث أى صوت. استراح الباب فى مكانه. فحسدته على هذه الراحة

المستحيلة بالنسبة لى. قلت لنفسى. أن راحة الباب تبدو طموحاً وحلماً لا أجرؤ على التفكير به.

وقفت فى أول الردهة، التى تؤدى إلى الصالة. التى تتوسط كل غرف البيت. مشيت بهدوء وعلى أطراف أصابعى. فكرت فى خلع الحذاء والمشى حافياً، خوفًا من إحداث أى صوت. يوقظ المرأة النائمة بالداخل، والتى كانت زوجتى. رحت أنصت لأصوات الصمت. كانت الشقة بكل ما فيها نائمة، الجدران و الأنوانر وقطع الأثاث والسقف. كل هذا لم يخرج بعد من وسن الليلة الماضية. والتى يبدو أنها ما تزال مستمرة حتى الآن. على الرغم من وجود صباح جديد. بعد أن استتب بداخلى الاحساس بالصمت. تسلل صوت واهن ورتيب إلى. كان صوت تنفس النائمة، وكان يأتى من غرفة النوم، وصوت دقات الساعة المعلقة فى الصالة. أما أصوات الحياة فى الخارج فكانت حالة النوم فى البيت تمتصها، وتجعلها تتكسر على حدودها الخارجية، ولا تصل إلى داخل الشقة إلا كصدى. قلت لنفسى. ستكون المفاجأة أضخم من أى تصور. ورحت أتخيل رد فعل المفاجأة عند زوجتى.

توقفت فى الصالة، كنت أمسح مكان قدمى قبل وضعها على الأرض خوفا من الاصطدامبأى شئ فى الصالة. فالصوت الناتج عن الاصطدام قد يفسد على الخطة كلها.

فى الصالة لم تلمح عينى تغييرًا ما قد حدث فى الأيام والليالى التى غبتها عن البيت. فقط كانت هناك أوراق كوتشينة وفول سودانى وزجاجات بيرة فارغة وأعقاب سجائر. فكرت فى عد أعقاب السجائر. ربما عرفت من ذلك عدد الذين كانوا هناك فى الليلة الماضية. وربما عرفت عدد النساء وعدد الرجال منهم، وذلك من خلال محاولة رؤية أحمر الشفاه على فلتر بعض هذه السجائر. أدركت سخف الفكرة؛ لأن القسمة ستكون صعبة، فأنا لا أعرف عدد السجائر التى دخنها كل واحد منهم. ثم أن زوجتى نفسها لا تدخن. آسف المفروض أن أقول أنها لم تكن تدخن من قبل ولكنه التغيير.

من وقفتى فى الصالة. شاهدت زوجتى. تلك أول مرة تقع عينى عليها، منذ الفراق المؤلم. شاهدتها كثيرًا بأعين الخيال. ولكن الرؤية فى الواقع تحدث لأول مرة. كان

باب غرفة النوم الذى يفتح على الصالة مباشرة مفتوحاً. لديها احساس نادر بالأمان.

كانت زوجتى فى سابع نومه. أدركت ذلك من صوت تنفسها الهادئ. أثار فضولى أن بعض الآهات والتأوهات كانت تغير من ايقاعه من وقت لآخر. ثم أنها كانت تتحرك بعد كل آهه. وكأنها تريد الاستمرار بصورة أفضل فى الحيز الصغير الذى تشغله من السرير. كان الحيز المخصص لى.يبدو وكأنه لم يمس. حتى فى حركة النوم الطبيعية لم تصل إلى مساحتى من السرير. لقد تحركت كثيراً. ولكن حركتها كانت فى دائرتها هى من السرير. أما منطقتى من فراش الزوجية، فكانت كما هى. خيل إلى وأنا أنظر إليها من مكانى فى الصالة، أنها لم تمس منذ أن تركت البيت وحتى الآن.

إحترت فى فهم هذا الوضع. هل هو انتظار لعودتى من جديد؟ أم انه رفض لى " وصل إلى رفلض حتى المكان الذى كنت أنام فيه. تحركت فى نومها وتنهدت. استدار جسمها وهى نائمة، فأصبحت فى اتجاهى. فترة طويلة مرت وأنا أشاهد زوجتى فى نومها. إنها المرة الأولى التى أفعل

فيها هذا. فألفة الحية اليومية لا تعطينا الفرصة لكى نفعل هذا فى العادة.

كان الصمت معلقا فى هواء الحجرة. وكان يتذبذب فى الهواء امام صوت تنفس زوجتى، وكنت استعذب الصمت. وفى هاء الشقة شممت رائحة عرق زوجتى، ورأيت صوت تنفسها معلقاً فى الهواء، يتبادل المساحة مع الصمت. كانا معاً، الصوت والرائحة، يبدوان معلقين من الليلة التى مضت. ولم يتحركا معها عند مجئ النهار.

اكتسب بيتى طابعاً خاصاً، وشكلاً جديداً، فى ظل ذلك الصمت. وذلك التداخل الرائع وغير العادى بين أضواء النهار الذى خرج إلى الدنيا وبين الليل الذى مضى. ومع هذا لاتزال زوجتى تعيش فى أجوائه حتى هذه اللحظة.

نظرت إلى وجه زوجتى، كانت السعادة تكاد أن تخرج من شدقيها، وأن تسيل من ملامح وجهها. وكان شعرها يتناثر حول كتفيها مثل المطر، وأذناها متهدلتان إلى أسفل. فجأة تحركت. ارتجف وجهها. لدرجة أنه خيل أنها تبكى حتى أثناء النوم.

تساءلت: هل تحلم بى زوجتى الآن؟ استبعدت ذلك، وان كان من المؤكد أنها تحلم فى نفس الوقت الذى أضاءت فيه الابتسامة وجهها النائم. وكادت أن تسيبل من عينيها المغمضتين. قررت أن أتركها نائمة حتى تصحو من تلقاء نفسها. وان كان العجب قد تسلل إلى نفسى. فزوجتى من قبل كانت تستيقظ مع النجمة، بعد الفجر بقليل. وكانت مشكلتى الدائمة معها، أننى لا أحب الاستيقاظ مبكراً فى الوقت، وكانت هى تصر على ايقاظى كل يوم كنوع من الهروب من الصمت. وعندما كنت أقوم من نومى. فى هذا الوقت المبكر. كان الصداع لا يفارقنى طوال اليوم كله. وكان كثير من مشاجراتنا تدور حول هذا السبب الغريب.

الوقت يقترب من التاسعة الآن. ومع ذلك فإن زوجتى تبدو وكأنها أمامها ساعات أخرى قادمة من النوم. لا أعرف متى تنتهى، ركنت حذائى. وسرت على أرض شقتى، اكتشفت أننى أنظر إلى الاشياء وكأنى أراها للمرة الأولى، وكأننى لم أحيا هنا هذا العدد الذى مضى من السنوات.

نظرت إلى أثاث بيتنا. قوى من الخارج وضعيف وواهن من الداخل، بل أنه لا داخل له. خشب ضعيف ينخر

فيه السوس. ومع هذا فإن مظهره الخارجى يبدو قويًا وجميلاً. ولهذا فهو غالى الثمن جداً. أتذكر الآن اننا اشتريناه بالتقسيط الذى لم يكن مريحًا أبداً.

جلست، كان من الصعب على، اختزان الماضى؛ لأن نفسى كانت مزدحمة بهذه اللحظة المفعمة من الحاضر. فى الطريق إلى بيتى هذا الصباح. مررت بمخبز بلدى. فاحت منه رائحة الخبر الساخن، أدركت ساعتها أن عزاء العالم كله يكمن فى هذه الرائحة، انتظرت طويلاً حتى إستيقظت زوجتى من نومها السعيد. كنت أجلس فى مكان يجعل عينيها تقعان على بمجرد فتحهما. وقد تحقق لى ذلك، اتسعت عيناها من الدهشة. ومدت يديها تسوى شعرها. ودارت أجزاء من جسمها كانت تبدو من قميص نومها.

ونظرت إلى:

- إنت

لم أفهم ما وراء السؤال الذى تكون من كلمة واحدة. وتحول وجهها إلى لوحة صماء، لم يبد عليها أى شعور، بعد الدهشة الأولى من رؤيتى. احترت ماذا أقول. تشاغلت

بالنظر إليها فى صمت. كان ما لدى وأرغب فى قوله كثيرًا. تزاحمت الكلمات على شفتى لدرجة اننى لم اعرف اى الكلمات اقول، وأى الكلمات أبقيها فى داخلى.

تركت غرفة نومها. وضعت على قميص النوم روباً تستر به ما يبدو من جسمها. قلت لنفسى، أنها تتصرف معى وكأننى رجل غريب. لم تكن تفعل هذا قبل تركى الشقة. خرجت إلى الصالة. وبدلا من أن تتجه إلى الحمام، لتغسل أسنانها و تغنى وهى فى الحمام، اتجهت إلى الصالة، وجلست قبالتى.

قلت لنفسى، عن زوجتى الجميلة السابقة، تنازلت عن طقوسها الصباحية، التى طالما قالت لى أن أى قوة على ظهر الأرض لا تجبرها على تغيير هذه الطقوس. يبدو أنها قررت الانتهاء منى أولاً، حتى تتفرغ بعد ذلك - وبمفردها- لطقوس يومها. كانت فى انتظار أن أتكلم. وكنت أحاول جاهداً العثور على الكلمات، ولكنها تخلت عنى وتاهت منى. ففضلت الصمت، وكانت ملامحها قد تحولت إلى علامة استفهام كبرى تطلب الإجابة.

قلت لنفسى. فلتتكلم هى أولاً.

اقتربت منى بوجهها

تساءلت:

- تحت أمرك

تنححت وقلت:

- المسألة أن الأمر

توقفت الكلمات، تعطلت لغة الكلام لدى. فصمت من جديد سألتنى:

- أى أمر؟

ساعدتنى، قلت لها فوراً:

- أمر حكايتنا.

قالت:

- تقصد التى كانت حكايتنا

تساءلت بدورى:

- من قال أنها كانت؟

أشارت لى بيدها:

- أنت

- متى؟

- عندما تركت البيت

احترقت فى فهم موقفها، تساءلت، ولكن بينى وبين نفسى هذه المرة: هل ما زالت تحبنى أم أن كل شئ قد انتهى؟ قلت لنفسى، أن الحديث فى حد ذاته يعتبر أمراً إيجابيًا. ولو استمر الحوار بيننا، قد نصل إلى نتيجة ما.

ما أحزننى أن وجه زوجتى تحول إلى لوحة من الاردواز الأصم. الذى بدا لى من الصعب فك رموزه. كان وجهها خالياً من العواطف. رحت أتلمس طريقى إليها. وكنت اتصور أننى يمكننى العثور على أول الطريق.

قلت لها:

- حضرت لكى أتكلم

ردت على:

- ليست لدى رغبة فى الاستماع

توسلت إليها:

- أن مجرد الكلام يريحنى.

قالت بوضوح:

- ومجرد الاستماع يتعبنى

تأكد لى أننى فشلت دائماً فى الوصول حتى إلى الحلول الوسط. والابتسامة الوحيدة التى عرفت طريقها إلى وجه زوجتى، كانت بهدف السخرية منى ومما أقول.

نقلت الحوار إلى منطقة أخرى عندما سألتنى:

- لم أتيت؟

قلت. وأنا أفتش بداخلى عن شعورى الحقيقى. هل هو الصدق أم الجمود القدرى:

- لا أعرف.

مشكلتى هى اننى احتاج لفترة من الوقت حتى اتمكن من العثور على الكلمات المناسبة. كان المفروض أن أقول أن هذا المكان هو بيتى، و اننى لا أحتاج لسبب لكى احضر إليه فى أى وقت. واننى أرض السؤال من حيث المبدأ بدلاً من الاجابة عليه.

قالت، بعد أن أطلت من وجهها ضحكة ساخرة. ممزوجة بحالة قريبة من الشماتة:

- وطبعا لا تعرف لم تركت البيت.

قلت سريعًا هذه المرة:

- أنت تقرأين أفكارى بدقة هذا الصباح.

قالت وهى تقوم:

- أين هى الأفكار حتى أقرأها.؟

وعلى الرغم من أننا كنا فى الصباح الباكر، إلا إن الكلمات بدت لى غسقية، فيها رائحة انتهاء اليوم، ونزول الليل علينا جميعًا.

ما أحزننى أن حضورى لم يكن له أى رد فعل لديها. وان الكلمات التى قيلت حتى الآن لم تفلح سوى فى أبعادنا عن بعضنا البعض، بدلا من أن تقربنا.

قلت لها:

- تصورت أن حضورى سيكون بمثابة بدء صفحة جديدة.

قامت من مكانها. تصورت أنها ستتجه إلى المطبخ. لكى تعد لى شاى الصباح، ولها قهوتها. وانها ستدعونى بعد قليل إلى جلسة الصباح، واننا سنتذوق كلمات كل صباح. مع رشفات الشاى والقهوة، وكأن ما جرى منذ تركى المنزل وحتى الآن مجرد فصله صغيرة. واننى كنت أقيم فى هذا البيت حتى لية الأمس. وأننا لن نحتاج لأى كلمات لكى نبدأ من جديد.

من المحزن أن كل هذا لم يحدث. كانت وقفتها إيذاناً بانتهاء الزيارة، وقد أوشكت أن تطلب منى مغادرة المنزل. وكان على محاولة انقاذ الموقف، قبل أن تتدهور الأمور للحد الذى لا يمكن اصلاحه.

كان على أن أنصرف وبسرعة.

ثلاث دمعات

لا أعرف أين تكمن بذرة الخلاف، تلك التى أوصلتنا إلى الحالة التى نحن فيها الآن. أن القصص الحقيقية فى حياة الناس، تبدأ كقصص غير حقيقية. تنتمى إلى عالم الأحلام بكل ما فيه من هلوسات. أن تركى للبيت بدأ فى خيالى أكثر من مرة. وقد تعاملت معه فى هذه المرات الكثيرة باعتباره قصة غير حقيقية، واسترحت لهذه الطريقة فى التعامل معه. وتصورت أن الأمر إما أ،ه لن يحدث أبداً. أو إن حدث فسيكون لشخص آخر سواى.

فى آخر مرة عشت الفراق فى خيالى. أتذكر الآن أن زوجتى كانت قريبة الوجه منى. واننى عندما خرجت من البيت. وأصبح وجهها بعيداً عنى. تذكرت أن فمها كان ملوثاً بأحمر الشفاه. وكان الطلاء نفسه مصبوغاً فوق شفتى. ويشبه من بعيد انتفاخًا فى الشفتين.

أنظر إلى حالى. تحدث لى حالة من الفزع. يتحول الفزع إلى نوع من اللذة الغريبة. المشكلة أن كل ما جرى قد حدث من قبل. ترك البيت عشته بعين الخيال، بل أن كل فعل

أقدم عليه فى الفترة الأخيرة من عمرى. أتصور أننى فعلته من قبل. وتشغل ذهنى حالة من المقارنة بين الطريقة التى وقع بها الحادث فى خيالى، بل أن كل فعل أقدم عليه فى الفترة الأخيرة من عمرى أتصور أننى فعلته من قبل. وتشغل ذهنى حالة من المقارنة بين الطريقة التى وقع بها الحادث فى خيالى. والطريقة التى يتم بها فى أرض الواقع. أحاول أن أرصد الفوارق بين هذا وذاك. وتصل الحيرة إلى مداها. عندما أدرك من خلال عملية المطابقة. المضنية والمتعبة معاً. أن كل شئ قد جرى من قبل. وربما بنفس الطريقة ذاتها.

ما من مرة عشت فيها ذلك الفراق فى خيالى. إلا وسألت نفسى، من الذى يمتلك الشجاعة لكى يفارق من يحب، حتى يستطيع فى أرض الوحدة الثلجية الباردة، أن يحدد مكانه بدقة. أن يعرف أين هو بالضبط؟ وإلى أين تسير به الأمور؟ كان السؤال يدق وجودى كله. فى الصباح، فى ذلك الوقت المكرر والمعاد. والذى نقف فيه أمام المرأة. أسوى شعرى. كنت أدرك - دائماً - عند طرح السؤال. الذى لا أجد له إجابة، أن الوجه الذى يطالعنى من خلال المرآة،

هو وجه مراهق، شاخ قبل الأوان. ولم أكن أصدق أن هذا الوجه هو وجهى أنا.

قبل ذهابى إلى بيتى السابق. أو الذى كان بيتى، تصورت الموقف على هذا النحو. زوجتى تجلس أمامى صامتة. وأنا أجهز الاجابات على سؤال، ستوجهه إلى حتماً:

- لم تركت البيت؟

طرحت على زوجتى الكثير من الأسئلة. ومع هذا كدت أن أطلب منها طرح هذا السؤال على. ولأننى أعرف قدر العناد الموجود فى طباع زوجتى لم أطلب منها توجيه السؤال لى. رحت أتكلم معها، وأنا أقول لنفسى، إن تداعيات الحديث. ستجعلنا نجد أنفسنا فجأة - ودون أن ندرى - فى مواجهة هذا السؤال. ولأننى تعبت كثيراً فى ترتيب الإجابة عليه فى ذهنى. حذفت منها وأضفت إليها حتى تبدو مقبولة للطرفين معاً. ولأن عدم توجيه السؤال، يعنى أن تعبى قد ضاع فهأنذا أثبتت هنا - فى هذا الأوراق- الاجابة على السؤال - الذى لم تقله زوجتى. أو ربما قالته ولم أستطع الرد عليه فى حينه.

من أجل الاجابة على السؤال، لا مفر من العودة إلى الحدث الرئيسى. الذى أوصلنا إلى ما نحن فيه الآن. أقصد تركى عش الزوجية السعيد. فجأة. الغريب أن هذا الحديث كان فريدًا فى نوعه. فلم تسبقه خناقات الأزواج التى تحدث عادة. ويتدخل الجيران لفضها. فيوسعون مساحات الخلاف، ويضعون أيدى الزوجين على مبررات جديدة للخلاف، كانا قد نسياها فى زحمة الحياة.

لم يحدث من قبل، أن وصلت أصداء وأنباء الخلافات إلى بيوت أهلينا، أقصد أهلى وأهل زوجتى. ولم يصل إلينا ذات مساء الأهل والأحباب وراء بعضهم البعض، يخفون عنا، أنهم تواعدوا على اللقاء هنا. بقصد الفرجة علينا. والتسلى بقزقزة همومنا بدلا من اللب والفول السودانى. بعد أن غلا سعرهما فى الأسواق.

الكل يصل فجأة، والكل يقول، أنه كان ماراً من هنا بالصدفة. وأثناء صدفة سيره فى الشارع. رفع عينيه بالصدفة أيضاً. وفى حياتنا فإن شماعة الصدفة تتحمل كل أمور حياتنا التى نرفض أن نتحملها نحن كنوع من الاختيار. والغريب أن هذه الشماعة لا تسقط أبداً من كثرة ما تحمل. يقول كل

واحد. انه عندما شاهد شقتنا مضاءة، قرر أن يصعد إلينا لمجرد السلام علينا. لأنه يصعد فيجد أن الآخرين قد سبقوه. لهذا يحلو السهر والجلوس. وبعد مضى وقت متفق عليه. يقول شخص. يتصنع الذكاء، انه يلاحظ وجود أمر غير عادى فى البيت. ونلعب جميعًا لعبة من النوع السخيف، الكل يصر على أن هناك أمراص ما.وأنكر أنا وزوجتى، ولأن اللعبة مملة وسخيفة. وكل أطرافها يضحكون على بعضهم. فإن طرفاً ما فى اللعبة. غالباً ما يكون أنا أو زوجتى. يقرر التوقف نهائيًا. وتحويل اللعبة التى لا طعم لها. إلى محاولة للعبة للصراحة، ويقول أحدنا انه كان هناك خلاف عابر بيننا. يهون الأهل من الأمر. ويقولون أن الأمعاء فى البطن الواحد. يحدث بينها الصراع أحيانًا. فما بالك بالحياة اليومية بين زوجين.

كل هذا لم يحدث بيننا. وكل ما حدث أننا ذات صباح، قمت من نومى، مبهور الأنفاس، متعب من شدة الإنفعال، أخذت ملابسى وأشيائى البسيطة، وغادرت البيت للمرة الأخيرة. لم أقل لها أى شئ. قلت إنها ستكتشف الأمر عندما تعود من العمل، فكرت أن أكتب لها رسالتة. ولكنى

خشيت، إن جلست وقررت الكتابة أن يستولى على الضعف القديم. وأن أبلل ورق الرسالة بدموعى الساخنة، وأن أبقى هنا إلى الأبد.

السبب الحقيقى لترك البيت. لم يكن واضحاً فى ذهنى، فى ذلك الصباح لقد استدار السبب وتحدد وتبلور بعد هذا. وعند حضورى إلى زوجتى اليوم. كنت احاول أن أصيغ السبب فى كلمات أقولها لها. كانت الجملة التى توصلت إليها. بعد عذاب للبحث عن أكثر الصياغات مناسبة لما بداخلى، كانت الجملة تقول:

- لقد تركت البيت. لأننى كنت ببساطة فى حاجة للنظر إلى حياتى من منظور جديد. وكان هذا من المستحيل أن يحدث وأنا أعيش معها فى بيت واحد.

شعرت أن الجملة غامضة. وأنها لا توضح الموقف كله. وبعد مراجعة وتدقيق وتوقف أمام كل كلمة فى الجملة. قررت أن أضيف إليها الجملة التالية:

- كنت ارغب فى البقاء وحيداً. وأن آخذ حياتى فى يدى من جديد، ربما لم تتحول الجملة إلى معنى مفهوم فى

الأذهان. حتى ولا بعد الاضافات التى اضفتها للجملة. بصدق صادر من أعماقى.كان هذا هو السبب فى تركى البيت. أما السبب فى رد الفعل، الذى حدث من قبل زوجتى، فهاى التى تسأل عنه. وهى التى تملك الإجابة عليه وحدها. وأنا من ناحيتى، لم أسألها لسبب بسيط، إنه لم توجه إلى إى سؤال.

الذى حدث أثناء زيارتى لزوجتى فى بيتنا القديم. انه بعد أن قبلت زوجتى فكرة بقائى فى البيت. طلبت منها أن تتصرف بشكل طبيعى، وإلا فإننى سأترك البيت فورًا. وأمشى من هنا.

سرنى تراجعها، تركتنى فى الصالة. وبدأت تمارس طقوس الصباح. وأنا أستخدم كلمة طقوس. لأننى كنت أتكلم عنها كثيرًا مع زوجتى فى الزمان البيعد الذى مضى. عندما كنت أقترب منها. أو أحاول التعبير عن حبى لها. كنت أقول طقوس العشق والبوح والمحبة.

بعد أن تركتنى فى الصالة، بدأت تتكلم. لا أعرف لمن كانت توجه الكلمات، ولكنها كانت تتكلم بمزيج من البراءة والإثارة. تكاد أن تبعث على الاغراء. تفجرت رغبتى فيها. بعد سماع نداء الشوق فى صوتها، والذى كان قد تبخر

خلال سنوات اقامتنا معاً. ولكننى وبعد مرور وقت قصير. اكتشفت أن رغبتى تبخرت فى الهواء وتلاشت كفقاعة الصابون.

تحركت زوجتى كثيرًا فى الشقة. بدت أمام عينى، فى صمت ذلك الصباح كمهرة خيالية، تطير فى الأحلام، وتدوس بعنف فى حبة القلب. وفى الحجرات، تكلمت من جديد. كانت تتكلم هذه المرة أيضاً بمفردها. قلت لنفسى، تلك أول نتائج أ، تحيا هنا من غير رجل. أننى المسئول الول عن هذا الوضع الغريب. عن أن تكلم زوجتى نفسها بهذه الصورة، تحول سيرها فى الشقة إلى محاولة للجرى، بدت أمام عينى هذه المرة، كحورية بيضاء ممشوقة القوام، طويلة القد. تهرب فى جريها المفاجئ، من وحش خرافى، ضخم ومشوه. فكرت فى الجرى وراءها. قلت ربما كان جرينا وراء بعضنا فى الشقة. مفتاح التواصل من جديد. بعد أن عجزت الكلمات عن أن تحدث ذلك. نظرت إليها. بدت لى رشيقة وسريعة ولن أستطيع اللحاق بها أبداً. من جديد بدأت تتكلم. وان كانت نبرات صوتها هذه المرة، تخلو من أى اضطراب. قلت لنفسى: أن الوقت المتاح أمامى، لكى

أستعيدها قليل جداً. واما أن أتحرك الآن. أو يفوت الوقت. من الآن وإلى الأبد هذه المرة.

أنظر إلى زوجتى. لا أدرى للمرة الكم. اختلطت الحقيقة بالوهم، بصورة يبدو معها من المستحيل فصل هذا عن ذاك. تبدو زوجتى مثل عذراء من الشمع. عيناها واستعتان حلوتان طفوليتان. وفمها على شكل قلب. ويتحرك صدرها الطرى برخاوة، يضغط على الملابس اللينة الطيفية. وساقاها مثل عود السرو. تمشى أمامى، تحرك فخديها بطريقة تعكس حالة التوتر الداخلى التى تعيشها.

كنت أعانى، وأنا أنظر إلى زوجتى، حالة من الحنين إلى التلاشى فى الآخرين. إن الصعنوبة التى تواجهنى الآن. هى صعوبة شاعرية بالدرجة الأولى. كان وجه زوجتى، مثل لوحة مرسومة، تبقى فى العادة كما هى، وعلى حالها. مهما دار الإنسان حولها، ولوف من كل جانب. ومهما غير من زاوية نظرة إليها. كان يطل من وجه زوجتى شئ عسير على التفسير، نظرة ما خالية من أى تعبير. نظرة جامدة وعاطلة وفاترة. نظرة مرسومة فى لوحة معلقة فى متحف.

ولكنى أقول، وبعد هذه التجربة المريرة، إن صمتنا هذا، يؤكد هزيمتى، أتوقف أمام زوجتى وأتساءل فى حيرة، أين كلام الزمان الذى مضى قبل تركى البيت. فى لحكات الصفاء العابرة" كانت زوجتى تتكلم بصوت حكيم وهادئ، تتكلم عن اقتناع ومن غير انفعال،. وتبدو أنها مقتنعة بما تقوله. وفى بعض الأحيان لم يكن يعجبنى ما تقوله. قدر ما كنت أحب الجلوس بجوارها والاصغاء إليها والنظر إلى ملامح وجهها. أحيانًا كنت أتكلم وكانت هى تستمع لى فقط. وكنت أتوقف فى منتصف الحديث. أقول لنفسى أن زوجتى تضن على بالكلمات. لا أواصل حديثى رغم كثرة ما لدى. وما أريد قوله. أعود للكلام من جديد. يخلو صوتى هذه المرة من الشجن والشوق، ويخيل إلى أنه ربما كان صوت شخص آخر سواى.

طال الموقف بيننا. كنت أكتفى بالنظر إلى زوجتى التى بدت لى شفافة كما لو كنت أشاهد ما وراءها؛ ولأن الصمت طال، قلت لنفسى ربما بدت الأفعال أفضل من الأقوال، وربما اختصرت المسافات، فكرت فى أخذها بين أحضانى وتجفيف دموعى بين يديها ولكنى قلت لنفسى. إن

هذا قد يفسد خطتى كلها. وقررت الصمود حتى النهاية. كنت أخاف من تأثير الدموع. إن بكى أحدنا. وكنت أخاف كثيرًا أن تبدأ هى بالدموع، فهى تعرف اننى ضعيف امام دموعها. آه لو كنت صادقاً مع نفسى الآن. لركعت بين يديها- ٠ مهما كانت الخلافات بيننا - طالباً منها الغفران. ولكننا نمثل على بعضنا ولهذا تماسكت. مع أنه كان من السهل أن ينهار كل ما بداخلى فى لحظة واحدة.

طالبت منها أن نتكلم، فابتسمت فى صمت. رحت أتذكر صوتها واسمى الذى كان يخرج من بين شفتيها فى لهجة مرحة ومرهقة فى آن واحد. وفى لحظة الصمت، راحت عيناى، تعيدان اكتشاف شقتنا. لم تكن زوجتى تحتفظ لى بصورة فى بطاقتها، ولمن تكن تعلق إحدى صورى على إحدى الحيطان. كما أن الصالون لم تكن به صورة زفافنا التقليدية. لم تفعل زوجتى أى شئ من هذا. مع أننا فى فترة الخطوبة الوردية. اشترت زوجتى جلدة للبطاقة. وفيها مكان لأربع صور. وعندما سألتها عن الصور الأربع التى ستوضع فى هذا الأمكنة لصورتى. قالت لى، بجواره لصورتها هى. وانها ستضع الصورتين لتبدوان. كمن

تنظران لبعضهما كل الوقت، وفى الناحية الأخرى. مكان لصورة إبننا البكر، ذلك الإبن الذى لم يجئ أبداً. والمكان الرابع والأخير. كان مخصصًا لصورة إبنتنا الوحيدة. وهى أيضاً لم تأت إلى هذا العالم حتى الآن. وكما تتشابك نظراتى مع زوجتى. فإن ابنى البكر وابنتى الوحيدة. لن يعرفا الملل أبداً من تبادل النظرات.

سألتنى زوجتى يومها

- ألن تكون اسرة سعيدة؟

وقلت من كل قلبى وقتها:

- إن السعادة نفسها اخترعت لتصبح إحدى صفات الأسرة التى سنكونها.

إن افلاس الحاضر، يدفعنى إلى الجرى فى دروب الماضى، التى تبدو الآن معتمة من ضعف قدرتى على التذكر. إننى أسأل نفسى فى جلستى هذه. هل كانت زوجتى هى فتاة أحلامى؟ وعندما أعود إلى سنوات الشباب، وأحاول أن أفتش فى ضباب الذكريات. لا أذكر أنه كانت لى فتاة

أحلام. وحتى أن كانت هذه الفتاة قد وجدت فى وقت ما. فأعتقد أن ملامحها قد طمست وتاهت.

اقتربت أكثر من زوجتى. طلبت منها الحديث. ولاذت هى بالصمت.

- أريد سماع صوتك.

نظرت إلى. بدا وجهها كأنه يوشك أن يبدأ أيام البكاء، ولكنها لمن تتكلم.

- أيام مضت ولم يلامس صوتك أذناى.

نظرت إلى، كانت ملامح وجهها تطلب منى السكوت. وكان هناك؛ رجاء صامت فى وجهها. يقول لى، ويتوسل إلى، يطلب منى عدم المضى فى هذا الطريق الخطر.

- كانت كلماتك زاد العمر.

أخيرا، أخيراً. بكت زوجتى. كل ما سمعته منها. صوت البكاء. وما شاهدته أن دموعها أصبحت مثل المطر. وأصبح وجهها مغسولاً بالدموع. ولأن الدموع جاءت بعد فترة من الجفاف. لا بد من وصف دقيق لما جرى. دموع

المرة الأولى. ترقرت الدمعة التى بدأت الطوفان كله. تجمعت فى العينين ببطء. تخلقت. أخذت شكلها خلال الثوانى الصامتة البطيئة الدوران. كان مشروع الدمعة أبيضاً، لأن العينين لم يدخلهما شئ صناعى بعد. العينان اللتان استيقظتا منذ قليل لم تعبث بهما يد إنسان. أمى كانت تقول لى. أن الدموع كحل العين الحقيقى. الدموع تزيد العيون لمعاناً وتألقاً وتجلعهما أكثر اتساعاً، تأخذ الدمعة شكلها، تشكل طبقة مائية فوق العين. تنزلق الدمعة على الخد. تترك خطاً لامعاً على خدها الأيمن. وخطاً لامعاً على خدها الأيسر. يشوه الخطان جمال لحظة الصحو من النوم. تحرك فكها الأسف. لأن إحدى اللمعتين توقفنا أثناء النزول. وتمد يدها لتبلل خدها الأيسر الذى أصبح جافاً بماء دمعتها المالحة الطعم.

دموع المرة الثانية: أقول لنفسى، خلال الفترة القصيرة الفاصلة بين الدموع الأولى والثانية، اننى لن أضعف أمامها أبداً. يجب أن أظل قوياً. لو فتحت باب الضعف الانسانى لانتهى كل شئ من الآن. لا بد من الصمود حتى اللحظة الأخيرة. هذه المرة تنبت الدمعتان فجأة. لكى أكون دقيقاً لا بد من القول. أن العين اليمنى تسبق العين

اليسرى فى تكون دمعتها، سأسأل أحد الأطباء فيما بعد. عن هذه الحكاية. هل تختلف العينان فى القدرة على إنبات الدموع؟ سباق الجرى بين الدمعتين يبدو واضحاً، جرت الدمعتان على الخدين. ولأنها دخلت إلى حالة البكاء لم تنتبه إلى سير الدمعتين ولم تتذوق طعمهما. أمى كانت تقول أن ملح الدموع، له طعم لا يوجد فى أى ملح آخر من كافة أملاح العالم. وإنه الدموع الذى يمكن أن يعالج كافة أمراض هذا العالم. وان اكتشافه واستخدامه فى العلاج سيعنى بداية عصر جديد فى تاريخ الأوجاع والعلل. فكرت فى سؤال زوجتى عن هذا الأمر.. ولكنى يأسا من ردها لم أسألها. مع أن الحديث حول موضوع ملح الدموع ربما أعادنا إلى الألفة القديمة.

دموع المرة الثالثة: أخذت الدمعتان فى هذه المرة وقتاً أطول، لا بد وان العين بدأت تضن بالدموع. أو أن الجفاف عرف طريقه حتى لبحر الدموع بداخل زوجتى. لم تجد الدمعتان الجرأة على النزول، ومع الحركة الرأس كانت ملامح الدمعتين تتحدان أكثر. وكنت أخشى على مشروع الدمعتين أن تسقطا من العينين. وكدت أن أطلب منها الهدوء

فالدمعتين الوليدتين أوشكتا على السقوط. ويجب الحفاظ على جنين الدمعتين حتى تكمتلا. بدلاً من أجهاضهما.

فكرت فى الحديث، ولكن ورود كلمات الجنين والاجهاض فى الذهن جعلنى أخاف من فتح هذا الباب الصعب. أشرت لها بيدى طالباً منها الهدو. خيل إلى أن العينين تعبتا. وأن الدمعتين ستأخذان وقتاً طويلاً حتى تخرجان إلى الوجود.

وأنا أشاهد زوجتى ووجهها مبلل بدموعها. كانت عيناى جافتين، كانتا متعبتين من كثرة العمل. قلت لنفسى. أسعفينى يا دموع العين. ولكن العينين كانتا فى جفاف الأرض الشراقى. وكانت لدى رغبة فى التأكد من أمرين فى دموع زوجتى: هل كانت الدموع دافئة؟ وهل كان طعمها مالحا؟ ذلك الملح النادر الذى سيشفى كافة أوجاع وعلل هذا الزمان. ولكن كيف أفعل هذا؟ ذلك هو السؤال الذى كان يشغلنى.

نظرت إلى زوجتى، كانت عيناها الزجاجيتان تلتمعان. لم أشاهد من قبل. كان هذا القدر من اللمعان فى عينيى زوجتى أبداً. تحول المنديل الصغير الذى فى يدها إلى

كرة مبللة. قلت لنفسى، أن الدموع توشك أن تدفعنى للاستسلام. ولم أكن رافضاً لفكرة الاستسلام. ولكن كيف يتم ذلك؟ وهل تقبله زوجتى؟ وكيف يكون رد فعلها؟

فجأة، وقفت زوجتى. كان وجهها ما يزال مبللاً:

- قبل أن نناقش حكاية العودة

كنت أشرب كلماتها:

- لا بد من الحديث مرة أخرى

قلت لها:

- تحت أمرك

قالت وهى تحاول وقف الدموع:

- لن يكون الكلام على أرضى ولا على أرضك

قلت محاولاً أن أبدو ضاحكاً:

- ما أكثر اتساع الأرض المحايدة.

نظرت إلى مستفهمه.

أوضحت:

- ما أندر الأرض التى نمتلكها، وما أقل الأرض التى نؤجرها من أجل الحياة عليها.

طلبت منى تحديد مكان وزمان اللقاء القادم. الذى سنتكلم فيه، قلت لنفسى، أن أكثر مشاكل هذا العالم تعقيداً تحل ببساطة. تناقشنا فى أمر مكان اللقاء وزمانه. كانت زوجتى تتكلم بوضوح وهدوء، وكانت الكلمات تخرج من فمها باقتناع. ولكن كان هناك ظل من العداء نائم فى قيعان أحرف الكلمات. ولكنه كان عداء متزنًا وعاقلاً. بدت لى أنها تفكر فى الكلمات قبل النطق بها، وكانت تبدو لى أنها حصلت على قناعة ما. ضد ملاحظاتى وكلماتى ومحاولاتى الاقتراب منها. سألت نفسى، هل يأتى اليوم الذى تشعر فيه زوجتى بالرغبة فى كحبيب؟ قلت لنفسى: كل الأمور الجميلة فى العالم قد تأتى من تلقاء نفسها. هذا الصمت المعلق فى مساحة الهواء بيننا هو السبب. ومتى كانت لدينا القدرة على كسره وقهره انتهى الأمر كله. أن عاد إلينا عهد الكلام مرة أخرى. عدنا إلى بعضنا. فكرة طويلاً. وفى البيت الذى بدا لى غريبًا. لأنه كان أصغر من أن يحتوينى مع زوجتى. ولم

يمنحنا الفرصة لأن نمارس إنسانيتنا فيه وعجز عن أن يكون داراً للعشق والتواصل والمحبة.

فى البيت. بيت الغربة، الذى هو بيتى الآن.. جافانى النوم وكان تفكيرى كله يدور حول زوجتى، التى تركتنى هذا المساء. العذب والمعذب معاً. المشكلة أن الزوجة لم تنجح فى أن تكون الزوجة والمحبوبة والمعشوقة فى وقت واحد.

فى فترة الحب التى تسبق الزواج. تلك الفترة المغلفة بظلال الرومانسية. تبدو فى العلاقات خلالها، أمور ترضى غرور الإنسان. فروسية اقتحام عالم أنثى بعيدة عن الإنسان. النبل الإنسانى الذى نغطى به وجوهنا وتصرفاتنا وكلماتنا. الرغبة فى الحصول على كل ما هو مجهول. الرغبة فى التسلل إلى الشارع الخلفى لإنسان آخر. الغموض اللذيذ الذى بتلك المرأة التى أحببناها. طعم بكارة الإكتشافات التى لن تنتهى أبداً.

ولكنه الزواج، الذى يأتى دائماً. انه الأيام التى تخلو من الفروسية والنبل والإكتشافات. انه ليالى العرى من كل ما كان يسترنا اجتماعيًا. وخلال رحلة التعرى تكون الإكتشافات عكسية. يركض كل منا فى الشوارع الخلفية لحياة الآخر.

التى كانت سره الخاص. المأساة أن اكتشافات هذه الشوارع لاتقرب الناس من بعضهم. بل تقيم بين الرجل والمرأة سبعة صحارى وسبعة بحور وسبع سنوات عجاف. وتعادو الإنسان تلك الرغبة التى لا تعرف الارتواء أبداً فى أن يعرف ويقتحم ويمارس فروسية، رجولته وينظر إلى تلك التى كانت حبيبته والآن أصبحت زوجته. يقول لنفسه:

- الزوجة هى الزوجة..

يكمل بعد قليل:

- لن تصبح المعشوقة أبداً

ويبدأ فى رحلة الابتعاد عنها. وعندما يتذكرها فى بعض الأحيان يقول لنفسه:

- بوسع زوجتى أن تجد طريقبة لتعيدنى إلى مكانى من حياتها. على الزوجات - مهما حدث - أن يحتفظن بأزواجهن. وستدرك زوجتى هذا إن عاجلاً أم آجلاً.

عبلة ترد الزيارة لعنترة فى الثامنة من ساء نفس اليوم القلب يصافح لقلب.

القلب ينبوع أحزان

لست عبلة، كما أن زوجى السابق، الذى يحاول الآن أن يصبح صديقى، ليس عنترة. ولكن الأهل والأصدقاء هم الذين أطلقوا علينا الاسمين. كنوع من التشبيه فى فترة الحب التى سبقت الزواج. والتى قضى الزواج عليها تمامًا.

اسمى زينات وينادوننى فى البيت زينة، ولكن زوجى، أقصد الذى كان زوجى. والذى يحاول الآن أن يصبح صديقى، ينادينى بعبلة. لدرجة أننا نسينا اسمى الأصلى، وإسم زوجى المدون فى أوراق زواجنا الذى انتهى. وكأننا ننتخلص من حياتنا السابقة.

لست عبلة، كما أنه ليس عنترة، ولكننا حاولنا القيام بالدورين. كما أن زماننا ليس زمان عبلة ولا عنترة. فلا أنا أعيش فى خيمة ولا زوجى فارس الحى. ينقذ الأهل والقبيلة من أجل حبه لى.كما أن قصتنا لم تمثل على المسارح ولم يتغن الشعراء بما فيها من حزن وشجن ولوعة وفراق. ومع هذا أحياناً يلتهم الاسم الذى نختاره نحن لأنفسنا فى ظرف. الاسم الذى أطلقه علينا الأهل. ولم يكن لنا إرادة فى اختياره.

أقولها للمرة الثالثة، لست عبلة. ومع هذا أحب أن ينادينى الناس بهذا الاسم، فهو بالنسبة لى كالثوب الجديد الذى يتعلق به الإنسان حتى يتمكن من الحصول على ثوب آخر بدلاً منه.

كنت أحلم بالليل. وطوال النهار، كنت أتحرك حاملة معى ذهول الصباح. ذهول لحظات ما بعد النوم. كنت أحلم خلال نومى بأن غريبًا يفتح شقتى من الخارج. وإن شخصاً ما. يتسلل إلى داخل بيتى وأنا فى نفس الوقت مقيدة فى فراشى، لا أستطيع الحركة، لا أستطيع الدفاع عن بيتى ولا حتى عن نفسى، إزاء هذا الضيف الغريب. وعندما تأكدت من عجزى. قلت لنفسى. إن هذا الغريب، الذى يحمل مفتاح شقتى. ليس بغريب عنى، وانه بعد قليل سيرحل.

مشى زوجى بعد أن تواعدنا على اللقاء على أرض محايدة، بناء على طلبى. وقبل مشيه. ترك لى عنوان البيت الذى يعيش فيه بصفة مؤقتة. ضحكت فى نفسى وهو يضغط على كلمة مؤقتة. وأدرك ما وراء هذا الضغط على هذه الكلمة بالذات. كان يكتب عنوان البيت وهو يتكلم عنه. قال انه بيت صديق له. أعزب تركه له، وذهب يعيش مع أهله.

حتى تذهب الغامة، وينجلى الكرب. فما يحدث بين زوج وزوجته لا يمكن أن يكون سوى سحابة صيف لا تستمر طويلاً. قال لى، إن صديقه أكد له أن حياته فى بيت لا يملك فيه سوى جلباب نومه وفرشاة أسنانه وأدوات حلاقته، معناه أنه يترك باب عودته إلى بيته الأصلى مفتوحاً. وليس مواربًا فقط. وترك الأبواب مفتوحة أفضل ألف مرة من إغلاق الأبواب وراء ظهورنا. فإغلاق الأبواب بصفة نهائية ربما ندفع العمر كله ثمناً له، خيل إلى أن زوجى يلعب، وكنت متعبة من سهر ليلة البارحة. ولم أكن أود الاستمرار فى تلك السهرات الصاخبة والمكلفة. وكنت فى حاجة لأمر آخر يشغلنى. فقررت الاستمرار فى اللعبة.

نبتت الفكرة فى ذهنى. وقررت تنفيذها على الفور.

قلت إن حضور زوجى إلى يعد زيارة. بالمعنى الاجتماعى. والمفروض أن أرد هذه الزيارة له. سأردها له اذن واليوم. زوجى حضر لى فى الثامنة صباحاً. وأنا سأذهب له فى الثامنة مساء. أى بعد مرور اثنى عشر ساعة على حضوره لى.حاولت تفسير حالة السعادة التى انتابتنى. هربت من محاولة التفسير إلى سؤال طرحته على نفسى: هل

مازال هذا الرجل يحبنى أم لا؟ من المؤكد أن الأيـام التـى عشناها معاً. أكلت بداخلها كل الأشياء الصادقة والجميلة التى جمعتنا معاً، ولكن من المؤكد أيضاً وبنفس القدر. أن حالـة الحبور الطفولية والفرح الصبيانى اللذين أطلا مـن ملامـح وجه وهو يرانى هذا الصباح، أكدا لى أن قلب هذا الرجل ما زال ينبض بحبى. وانننى برغم كل ما جرى ما زلت قـادرة على إسعاده.

غريب امر زوجى. أقصد الرجل الذى كان زوجى. ونحن نتكلم عن اللقاء على أرض محايدة. لمحت له بامكانية أن أقوم بزيارته فى البيت. أكملت أن هذا الاحتمال ضـئيل لحد الاستحالة. قال لى أن هذه الزيارة ستكون أسعد ما فـى عمره كله. وان كان يشفق على من الانتقال من هنا. وحتـى البيت الذى يعيش فيه بصفة مؤقتة. معنى هذا أن أركب ثلاث مو اصلات فى الذهاب، وثلاث مواصلات فى العودة.

قال لى زوجى، أن ظروف الوضـع الجديـد غيـر المبرر، والذى لا طعم له، تجعل من الصعب ركوب تاكسى، لأننا أصبح لنا الآن بيتين بدلاً من بيت واحد. والقرش الـذى كنا ننفقه معاً. أصبح مطلوباً انفاق ثلاثةى قروش بدلا منـه،

وهو من ناحيته، فإن ظروفه المالية لا تمكنه من الحضور إلى وأخذى فى تاكسى حتى بيته. لعب الفأر فى عبى. قلت له. أن كانت زيارتى له قد تغضب التى تعيش معه، يمكنه أن يخبرها بالزيارة مسبقاً، وأن تترك البيت لى وقت الزيارة فقط. غضب من استمرار ظلمى له - هكذا وصف موقفى منه - كرر عرضه أن يحضر إلى ويأخذنى معه حتى لا أتوه وأسأل. وقد لا أصل إليه أبداً. فالبيت الذى يعيش فيه فى منطقة جديدة. الشوارع بدون أسماء ولا توجد علامات تحدد المكان.

- ستكون مهمتى الأساسية هى الوصول إليك.

هكذا قلت له. كتب لى العنوان. على ورقة من حجم الفولسكاب، بها الكثير من العلامات والشواهد. وفى ظهر الوقة رسم خريطة ضخمة حدد فيها الجهات الأربع. كان الوصول إلى المكان الذى يعيش فيه زوجى مغامرة محببة إلى نفسى. رحت أتخيل رفقة السهر الجديدة. الذين يحضرون بهدف ملء الفراغ الجديد فى حياتى بعد" بروفة الطلاق بينى وبين زوجى". هكذا منحوا وضعنا اسماً من عندهم. أتخيل

حضورهم واكتشافهم أننى لست فى المنزل، وعدم حضورهم بعد ذلك.

لدى إحساس اننا جميعاً، أنا وزوجى وشلة السهر الجديدة، مجموعة من ذوى القلوب الوحيدة. نحاول الحصول على الدفء الإنسانى المفقود، من خلال التواجد معاً فى مكان واحد. لا يمكن لمن يتواجدون فى مكان واحد وظهورهم إلى الحائط وأمامهم البحر أن يلتقوا أبداً. وأن يتحول اللقاء إلى حالة من التآلف الإنسانى. بالنسبة لى، كان الوضع مختلفاً بعض الشئ. كان زوجى هو البحر الذى أمامى. وهذه الجماعة كانت هى الحائط الذى خلفى. وقد ارتكبت خطأين. الخطأ الأول: أننى لم أحرق السفن الراسية فى ذلك البحر الواسع المتلاطم الأمواج، حتى أحرق معها امكانية العودة للسباحة فى ذلك النهر. أما الخطأ الثانى: أننى لم أحاول عبور الحائط الذى خلفى إلى ما بعده. بل ظللت مثل راقصات السلم. إلى أن حضر زوجى يطرق بابى فقررت القيام بهذه المغامرة. فما دام هو يلعب. فما المانع من أن أودى دورى فى هذا اللعب حتى تكتمل اللعبة.

سألت نفسى عن السبب فى زيارة الرجل ا لذى كان زوجى فى البيت الذى يسكن فيه، فاكتشفت اننى لا أعرف السبب فى هذا. قبل أن يتركنى زوجى. قال لى وهو يقف على الباب:

- بوسع العالم أن يتبدل وأن يصبح أفضل مما هو عليه الآن.

سمعته وأنا أعانى حالة من الدهشة والحيرة. زوجى السابق يتكلم شعراً ويتحدث عن العالم. وهو الذى لم تر حدقتا عينيه من قبل سوى مشاكلنا وهمومنا. ولم يحسب فى ذهنه سوى مرتبنا وهلى يكفى الشهر كله. وكم مرة يمكن أن نأكل اللحم. زوجى السابق. الذى أدار ظهره للدنيا بكل ما فيها. ظناً منه أن تلك أفضل وسيلة لحماية عش الزوجية من عواصف هذا العالم. هذا الزوج نفسه، يتحدث الآن عن العالم الذى من الممكن تبديله ليصبح أفضل.

تساءلت: هل كان لا بد من تركى المنزل. حتى يتحول زوجى السابق إلى شاعر لديه تلك القدرة على قول الشعر، سار، ولكنه وقبل أن أغلق الباب، عاد إلى من جديد، اعتذر. قال إنه مشى دون أن يسلم على. وهذا خطأ منه.

وهو يعود إلى لكى يعتذر، ويسلم على رغم ايمانه أن القلوب سلمت على بعضها منذ أن ألتقينا هذا الصباح الجميل. والذى أتى بعد أصباح لم تكن جميلة أبداً، لأننا لم نكن نعيش فيها مع بعضنا البعض.

نزلت من بيتى فى الخامسة بعد الظهر. مر الوقت على بطيئاً، ورفضت الساعة أن تتحرك. وتصورت أكثر من مرة أنها توقفت. ولكن عندما سألت الجيران اكتشفت أن ساعتى مضبوطة. ولكن المشكلة أن إحساسى بالزمن سبق حركة الساعة البطيئة.

قال لى اننى سأركب ثلاث مواصلات. لم يكن معى ما أدفعه اجرة للتاكسى. خاصة وأن المبلغ غير محدد. يخضع لمساومات العرض والطلب، والركوب مع أصحاب العربات الخاصة مغامرة لا يعرف الإنسان متى تنتهى ولا أين. سرت فى الشارع. ضبطت نفسى فى حالة وجد عاطفى. توقفت. المسألة ليست طعم المغامرة التى أقدم عليها الآن. المسألة أبعد من هذا. لعنت الضعف الإنسانى الذى يعبر عن نفسه فى اللحظات الحاسمة والذى يعطل الخطط التى أقدم عليها. ومشكلتى أننى عندما أخطط لحياتى أغفل

دور العواطف، ولهذا تفاجئنى فى الوقت غير المناسب. وأنا غير مستعدة لها. أسأل نفسى، هل ما يزال فى القلب مكان لذلك الرجل الذى كان زوجى؟ ما دام الأمر قد وصل إلى منطقة القلوب وما فيها من عواطف. فربما بدت الإجابة على السؤال صعبة.

الواقع حولى لم يتغير، زحام البشر، والمواصلات البطيئة والمزدحمة وكلمات الشارع التى أسمعها. ومع هذا ثمة شئى قد تغير فى هذا كله. ربما كنت أنا التى تغيرت.

كان الوصول إلى المكان صعباً. وقد تعبت من كثرة المشى. وأرهقت من كثرة الأسئلة. والمشكلة أن من يعرف يدلك. ومن لايعرف يرشدك أيضاً، بدلاً من الاعتراف بأنه لا يعرف. ولولا الظرف النفسى الذى أعيشه لقررت الرجوع، ولكن كان بداخلى تصميم غريب على الوصول مهما كان التعب، وقد وجدت لذة خاصة فى التعب من أجل الوصول إليه. كان الوقت يقترب من لحظة الغروب. وأنا احب هذه اللحظة بكل خاص، وأحب أن أرقبها كل يوم. حيث تنزل قطرات الليل لتستقر فى الأمكنة والزوايا والأركان. كنت أجلس فى شرفة منزلى. الذى كان منزلنا. بينمنا زوجى ينام

بالداخل. كنت أتساءل دائماً. وكان سؤالى عن الليل. هل بينزل من السماء أم يطلع من الأرض؟ كان لدى إحساس دائم، أنه - أى الليل - يصعد من أسفل. من الأماكن الغويطة، حيث يعشعش فى الحوارى والشوارع. وإن كان العقل يقول لى أن الليل ينزل من السماء. على شكل قطرات من ظلام الليل القادم. كانت مشاهدة هذه اللحظة عملاً محبباً إلى نفسى. لدرجة اننى عندما كان التعب يجبرنى على النوم ظهراً. وعندما كنت أستيقظ من النوم، فاكتشف أن الدنيا ليلت. كنت أشعر بحزن غريب. وأشعر وأن يوماً ضاع من العمر. دون أن أشاهد لحظة التبدل التى تحدث لكون كل مساء.

شاهدت اليوم، فى رحلتى هذه، عملية ولادة الليل.. خرج جنين الليل القادم من رحم النهار الذى مضى. وأنا أبحث عن عنوان زوجى، وان شئت الدقة لقلت وأنا أبحث عن زوجى الذى كان معى فى الثامنة من صباح اليوم.

أخيراً، كنت أقف امام باب شقة زوجى. الشقة التى يصر على القول أنها مؤقته. لم يكن فيها جرس. فطرقت زجاج الباب بيدى، واستمر الطرق. قلت أن زوجى نائم. وسيقول لى بعد الدخول. إنها المرة الأولى التى ينام فيها. فى

مثل هذا الوقت. لأن عقله استراح أخيرًا. وسأصدقه وأبدو سعيدة بما يقوله لى.

صدق ظنى. لأنه فتح الباب لى. والنوم يطل من ملامح وجهه، كان ما يزال نائماً وكان يرتدى ملابسه الداخلية التى لم تغسل منذ أيام مضت. شربت عرقه، واستقرت عليها أتربة الحى كله. شممت رائحة عرقة التى كانت تضايقنى من قبل، عرفتها. وشعرت بافتقادى لهذه الرائحة طوال أيام الفراق التى مضت. تعمد أن يتعامل معى بألفة الزمان الجميل الذى ولى. والذى أعتقد انه لن يعود. اشرت لعريه. فقال لى انه يعرف. وأنه لن يغير ملابسه. لأنه لا يوجد شخص غريب معنا. كل التغيير الذى حدث، أننى قى شقة صديق له. بدلاً من أن نكون فى شقتنا.

أوحى منظر الشقة لى. أنها بالفعل مكان عابر ومؤقت حتى بالنسبة لصاحبها. رغم صغرها. إلا أنها بدت واسعة لقلة الأثاث فيها. الصالة كانت خالية تمامًا من الأثاث. وثمة غرفة مغلقة. والغرفة التى كان يستعملها زوجى. كان فى وسطها سرير تعمه حالة من الفوضى. وكان النور مضاء. و النافذة الوحيدة مغلقة. والهواء فى الغرفة كان

راكداً. ومفعمًا بروائح مختلفة. برائحة النوم. ورائحة تسوس الخشب ورائحة القطن الموجود فى المرتبة. بدا لـى الجـو كئيبًا. قال زوجى.

- لم أصدق أبداً خرافة حضورك لزيارتى.

لم أغلق.

كان فى الغرفة كرسى صغير إلى جانـب السـرير، أشار زوجى للحجرة وهو يفرك يديه، وقال أنه سكن مؤقت. كما أرى. قلت ولكن لنفسى، إن كل ما فى العمر مؤقت. من قال أن هناك شيئًا دائما فى العمر كله. اشار للسـرير مـن جديد وأشار للكرسى وقال:

- أنت تجلسين على الكرسـى وأنـا أجلـس علـى السرير.

لم أعلق بكلمة واحدة. أكمل هو بعد قليل.

- أن تعبنا خلال الحديث. نبدل الأوضاع، فيصـبح السرير من نصيبك انت. انتقلت من مكان لآخر فـى الشـقة بسهولة. كنت أطفئ المصابيح فى الأمكنة التى أصل إليهـا. ونور الشقة كان كله مضاء رغم إننا كنا فى آخـر النهـار.

وكان تصلنا بقايا ضوؤه من الخارج. سألت نفسى وأنا أطفئ كل هذه الأنوار. هل يضئ زوجى كل هذه الأنوار كنوع من الونس. حتى يبدد وحشة المكان. أم لأنه يعرف أننى قادمة بصورة مؤكدة. فأراد أن يؤكد احساسه بحالة وحدة وهمية يعانى منها. بهذه الحركة المسرحية؟

عندما دخلت غرفة النوم. مرة أخرى اكتشفت أنها يمكن أن تكون غرفة فى فندق. غرفة غير مريحة، ولا تدل على ذوق معين. وتعطى الانطباع بالضيافة الذى تعطيه حجرات الفنادق. السرير واسع. وان ك أن ليس سريرًا زوجيًا. لأنه أضيق من أن يتسع لشخصين معًا. وهو فى نفس الوقت عريض. انه يكفى لشخص واحد يتحرك فيه بحرية تامة.

فى مواجهة السرير، مرآة ضخمة. كتلك التى نراها فى الكوافيرات ومحلات الخياطين، ليست مرآة بتيتية تعكس الشخص الذى أمامها. بل هى مرآة عامة. وفى مواجهة السرير. كرسى له ثلاثة أرجل فقط. وحتى لا يقع فهو مسنود على الحائط، ويبدو أن دور الكرسى بالنسبة لزوجى. يضعها فوق الكرسى. ودور المرأة انه كان يشاهد نفسه فيها وهو

يتخلص من ملابسه. هذا ما كان زوجى يفعله عندما كان فبى بيتنا. كان يضع ملابسه على الكراسى رغم وجود أكثر من شماعة وأكثر من دولاب فى البيت. وكنت أقول لنفسى. انه من طول فترات العزوبية بالنسبة لزوجى فهو لم يقتنع بعد بأنه أصبح زوجاً. وبأنه يعيش فى بيت الزوجية. وكنت أهدئ نفسى وأقول أن الإنسان يتعلم هذه الأمور بالتعود.

كل ما فى الحجرة مقلوب. وأرضية الشقة يبدو أنها لم تكنس منذ شهر مضى.

قال محاولاً أن يجعل الأمر فكاهياً:

- إنها الفوضى اللذيذة.

كانت فى صوتى نبرة من التحدى. وأنا أطلب منه أن يرينى بقية الشقة. مات مشروع الضحك الذى كان على وشك أن يولد على شفتيه. وقادنى إلى المطبخ. لم أطق الوقوف فيه. مطبخ قذر. تسوده حالة من الفوضى. وبقايا الطعام التى كانت فى الأطباق. تقول أنها - أى الأطباق - لم تمس منذ عام مضى. ويبدو أن زوجى لم يستعمل هذه الأطباق خلال فترة إقامته هنا. فى الشرفة كان هناك كرسى من الجريد. يعلوه

التراب. وجزء من سجادة تاه لونها. وفيها بقع من تأثير الحروق فى أكثر من مكان فيها. وفى قفص قديم كانت توجد جوزة وفحم وكميات من المعسل الجاف. واناء فيه ماء مثل أسنان المدخنين.

أشار زوجى لهذه الأشياء وقال:

- تخص صاحب الشقة.

بد أننى لم أسمع كلماته. وعندما قادنى إلى الحمام. لم أطقب دخوله. ومددت أصابعى أسد بها أنفى. لأن الروائح التى هبت على كانت قوية ونفاذة.

قال زوجى معلقاً:

- أن العادة تجعل الإنسان يتآلف حتى مع السجن.

قال كلمة السجن وهو يشير إلى الشقة. نظرت إليه جيداً وبهدوء، كنت أتمنى أن اقول له العب غيرها، أو أفعل هذا مع غيرى.. ولكنى فضلت الصمت هروباً من الجو الإنسانى- الذى يشيع فيه الحب - الذى ربما أثارته هذه الكمات.

قلت لنفسى، ماذا جرى لزوجى. فى الصباح يقول الشاعر وهو يتكلم الآن مثل الفلاسفة، تمنيت لو أن ما حدث كان قد حدث من قبل. كان ذلك أفضل ولعاد إلى زوجى قبل فوات الأوان.

نظرت إلى وجه زوجى. كان وجهه كئيبًا غامضـــاً. وان كان خالياً من أى تعبير. كنت أرغب فى الكلام. ولكننى صمت. لأننى لو تكلمت فى هذا الوقت. فإننى كنت سـأعود على مياه اللحظة العاطفية الطارئة. كان الصدق قد تبخر من صوتى. وأصبحت أشم رائحة الكذب فيه. وقلت لنفسـى: أن المطلوب الآن هو تلك القدرة الفريدة على الصمت.

قال لى زوجى:

- لا بد من الحوار بيننا. على ألا يكون مثل نزاعات أيامنا الأخيرة الصامتة.

نظرت إلى الأرض التى كانت عارية. كانـت فيهـا ذرات رمال. يبدو أنها من قدمى أنا. قلت فى خاطرى. ربما كان هذا الصمت مطلوباً. لأن ما كان بيننا فى الأيام الأخيرة.

كان صامتاً. لم يكن حباً يعبر عن نفسه بالصمت، فالصمت قد لايصلح لأن يكون غذاء وحيداً للحب.

فى هذه اللحظة اكتشفت كم من الكلمات كان من المفروض أن نقولها، ولكن الذى حدث أن كل كلماتى تغرق فى بحار صمتى. اعترانى إرهاق متعب. فقدت القدرة على الكتمان. وكنت متعبة من تلك الرغبة فى البوح. الكلمات كانت أمنيتى الوحيدة فى هذه اللحظة واشتعل وجهى بالرغبة فى الحديث.

مددت يدى. عبثت برماد السجائر فى المنفضة. اكتشفت أن ملمس الرماد جميل، وانه لايلون أصابع اليدين ولا يعلق بهما. وكانت قطرات العرق تتلألأ على جبهتى. وشعرت بجفاف فى الحلق مثل جفاف الصحراء. وإستولى على الإحساس بالعطش. وشعرت برغبة لا تصفها الكلمات فى الارتواء حاولت أن أتذكر آخر مرة شربت فيها، وتجمعت حياتى كلها فى أمنية العثور على قليل من الماء البارد. ولكن ذلك بدا لى مستحيلاً ولم أجد لدى الرغبة فى أن أطلب منه شربة ماء.

أما هو. فقد كان حزينًا فى هذه اللحظة. حزن من نوع خاص. حزن من يرى نفسه مبهوراً بلحظة كان يتصور من قبل أن مجيئها مستحيل ولكنها جاءت فعلاً. جاءت فى الوقت الذى لا يمكنه استغلالها فيه بصورة مقبولة.

تعبت، تعبت، تعبت، تعبت، حاولت الجلوس على الكرسى الذى كان فى الشرفة، ولكن طبقة التراب كانت كثيفة. دخلت إلى حجرة النوم وجلست على الكرسى الموجود فى حجرة النوم. لولا الجدار الذى كان يستند إليه الكرسي لوقعت على الأرض. سألنى عن حالى. نطق وجهى بكل التعب الموجود فى هذا العالم وأنا أطلب منه تركى بمفردى.

خرج وهو حائر فى فهم حالى، وعندما ران على صمت الوحدة الذى اختلط بالتعب، والإرهاق. عادت إلى الصورة التى تملأ ذهنى منذ صباح اليوم. صورة الابن التى تطاردنى فى النوم وفى اليقظة. النوم المتعب واليقظة الحارقة. اكتشفت المعنى الذى كان غائبا عن ذهنى منذ أن جئت إلى هنا. وبسبب غيابه كان لدى ذلك الإحساس انه ثمة شئى ما ينقصنى. سألت نفسى. هل كان هذا الطفل - الذى لم يأت - هو الذى دفعنا إلى الحالى الذى نحن فيه الآن؟

مددت يدى إلى بطنى. كانت فارغة. وخيل إلـى أن مكانها تجويف غويط. نظرت إلى السرير. الغريب والمحزن معاً أننى لم أشعر بذلك الاشتياق القديم إلى الفعل. ولكن صورة ذلك الطفل الذى لم يأت والتى ملأت علـى خيـالى. أصبحت مثل الضوء الكاشف. إننى أصـبحت أرى الأمـور أكثر وضوحاً وقوة من خلاله.

قلت لنفسى:

- تعبت.

واعتصرت رأسى بين يدى بقوة.

ثلاث طرق لبدء الكلام

إننى أبدو كمن يحاول الضحك على نفسه. كمقدمة للضحك على الآخرين، إن نجح فى الضحك الأول. فقد ينجح فى الضحك الثانى. ذلك اننى أتجنب حتى الآن الحديث فى الموضوع الهام. والذى يجب الحديث فيه قبل غيره. أقصد حكايتنا معاً. صحيح اننى لم أترك البيت. ولكن بقيت فيه. وقد تم ذلك بمنطق. أن أكثرنا شجاعة، هو من يبقى هنا حتى النهاية. وان أكثرنا قدرة هو من يدفع الآخر للبدء بالتصرف. أعترف اننى قمت بفعلين. ربما كانا الدافع الأصلى. ربما كانا الفعل. وما قام به زوجى لم يكن سوى رد الفعل. الفعل الأول اننى أوصلت الأمور بيننا إلى حافة أنه لا بد أن يترك أحدنا البيت فوراً. أما الفعل الثانى فهو انه عندما ترك زوجى البيت استرخت لهذا. ولم أقم بأى خطوة من أجل البحث عنه أو محاولة استعادته. وبدون كمن استراحت لهذا الحل الذى أقدم عليه زوجى. وحتى بعد حضوره إلى. ترفعت حتى عن سؤاله عن الحال الذى وصلنا إليه.

قمت بزيارته فى شقته. دخلت. وقبل أى كلام سألته:

- ماذا تريد؟

رد على الفور

- لا شئ

نطق لسانه بالكلمة. وان كانت ملامح وجهه قد أعلنت عن كذبه وكان من المفروض على فى مواجهة كذبه أن أقول الصدق. ولكنى لم أفعل. قال لى مرة أخرى. أنه لا يريد منى أى شئ. وان كانت حركات وجهه، قد أكدت لى.أنه يريد منى كل شئ دفعة واحدة. وإن كلمة لا شئ. كانت مجرد محاولة لطلاء كل ما يريده منى بالكذب. الكذب على نفسه، قبل الكذب على.

- لا شئ.

قالها للمرة الثالثة. مع أنه كان يريد كل شئ.

عندما زارنى، تمنيت لو سألته عن حكاية الفراق. ولكنى خفت أن يفتح السؤال الباب أمام الضعف الإنسانى الذى أخشاه. فأنا من ذلك النوع من الناس، الذى يحمل قلبه على يديه. وعواطفه جاهزة والدموع مترقرقة فى مآقى

العيون دائماً، مستعدة للنزول على شكل المطر حتى فى أوقات الصيف وفى أزمنة الجفاف.

وعندما ترك زوجى البيت. فعل هذا بطريقة وضعتنى أمام الأمر الواقع مباشرة. ولو لجأ إلى طريقة أخرى. إذن ربما تمسكت به ومنعته من الذهاب. لو تكلم معى وناقشنى. حتى لو قال لى. انه سيترك البيت اذن لتمسكت به. لطلبت منه البقاء فى البيت على طريقه عزومة المراكبية. ولكنى لم أفعل، لكى أجد نفسى وحيدة فى البيت. فى البداية استراحت نفسى لهذا الوضع. وفزعت من هذه الرائحة الى أحسست بها عندما وجدت نفسى بمفردى. وعدت أقوم بعملية إعادة خلق لوجودى كله. محاولة أن أضع يدى على الخلل الذى أصاب حياتنا وبيتنا. والغريب أننى لم أجد أمامى أمراً معيناً يمكن أن أقول انه كان السبب فيما جرى.

لدى إحساس أن الخطأ يكمن فى أن الرجل الذى أحببته وتزوجته عن حب منذ سنوات مضت لا وجود له الآن. تبخر أو ذاب أو رحل. والذى يعيش معى فى الأيام الأخيرة. شخص آخر يقلده. لا يمت له بأى صلة سوى تلك

القدرة الفريدة على التقليد. وكان هذا وحده كافيـاً كافيـاً لأن أتوقف فى منتصف المرحلة. وأن أحمل صورة الشخص الذى يقلد زوجى. محاولة البحث عن الأصل. الذى تاه وضاع منى. ومنه هو أيضاً. وبعد أن عشت مع الشخص الذى يقلد زوجى. بدأت الحياة تطفح بيننا بكل ما هو مكروه منا. بحيرة حياتنا أصبحت راكدة. ما كان يجرى ويتحرك فيها توقف. وعندما تتوقف المياه فى البحيرات الصغيرة. فإن ما يطفو على السطح هو الجثث الميتة والأعشاب السامة والنباتات الضارة. وحتى الروائح التى تنطلق منها تصبح روائح كريهة.

كانت لدى رغبة فى الحديث عن الماضى. ومع هذا فضلت الصمت، كنت أرغب فى أن أقوله لـه. فـى الحب الأول تحترق أوهام العمر كله. وبالنسبة لنا معاً. قد احترقت أوهام العمر القصير فى حبنا الأول. ثم احترق الحب الأول نقفسه فى سوقية الحياة الزوجية وتفاهاتها اليومية.

لقد تاهت مقدمات قصتى معه. ضاعت تحت تراكمات الواقع الكئيب الذى عشناه معاً. لقد نسيت حتى عذوبة الكلمات الأولى، ورعشة القلب، وقشعريرة اللمسات

الأولى. كل هذا ضاع تحت بلادة الحياة اليومية. ومعظم ما جرى بعد هذا. كان مجرد خناقات وشتائم.

أقول الآن. انه كان لا بد من رحيله وبعده عنى. حتى أتذوق طعم وجوده من خلال ذلك الغياب. الذى حدد لى معنى أن يكون زوجى بعيداً عنى.بعد رحيله. كان السرير يبدو لى واسعاً. وتذكرت أننى فى الليالى الحارة الماضية. كنت أضيق به. وبوجوده فى جوارى. وكنت أنوى أن أحدثه بخصوص شخيره الذى يرتفع فى الليل. وأطلب منه حلاقة شعر رأسه فى أوقات متقاربة. خاصة شعر مؤخرة رأسه لأن هذا الشعر يلوث وجه المخدة سريعًا. وأطلب منه الاستحمام قبل النوم. وأن يجد حلاً ما للعرق الغزير الذى ينزل من جسمه. بل أكاد أقول: العرق الغزير الذى ينز من جسمه.

باختصار، كنت أشعر بالضيق من وجوده معى فى بعض الأحيان، وكنت أتمننى لو يحصل على إجازة من عمله، وأن يسافر إلى بلدته. كنت قد ضقت ذرعاً بهذه الحياة التى نتقاسمها معاً. وخصوصًا أننى لم أكن أستطع الإنفراد بأى جزء من وقتى ومن حياتى. وعندما رحل هو سعدت

قلت لنفسى، أن الأيام القادمة سيكون لها طعم مختلف. لم أجربه من قبل. ولكنى لا أستطيع الحديث عن بدء الإحساس بالفراغ الذى تركه. وأفزع عندما اكتشف مدى شوقى لكل الأشياء التى لم أكن أحبها فيه. بدت لى أشياء جميلة. من الصعب الحديث عن مدى جمالها. كان شوقى لها حقيقيًا.

جمع أشياءه ومضى، لم أكن فى البيت وقتها. وان كنت- بعد أن تأكدت من رحيله - أتخيل وقع اقدامه على أرضية الشقة. وسمعت ألف مرة. بأذن الخيال، صوت باب الشقة يفتح بعصبية. ثم يغلق من جديد بنفس العصبية.

أصبحت امرأة وحيدة. ضائعة ومهجورة. فقدت الرغبة حتى فى القيام من الفراش. ثم أوشكت أن أفقد القدرة على الحركة. تخلى عنى جسمى كله. وأصبحت امرأة متثاقلة كئيبة. وفى كل يوم، كنت أنفض الغبار عن بيتنا. وأفتح النوافذ والأنوار حتى يدخل الهواء، وأحيانًا أقف حتى تدخل الشمس. تمامًا. مثلما كنت أفعل وهو معى.

- هل هناك إمرأة أخرى؟

سؤال طرحه على الآخرون. يريدون زرع مخاوف من نوع جديد فى حياتى. لم أجب على السؤال. كان لدى يقين أنه لا توجد إمرأة أخرى. قلت لنفسى، لو أن المشكلة هى تركه ابيت ما غضبت أبداً. فترة ويعود إلى وإلى بيته، ولكنى كنت أخشى عليه من حياته الجديدة. من التعب والعمل والإرهاق وقلة الموارد.

كان زوجى يتكلم. وكنت أمارس عادة التجوال فى هذا البيت الغريب أذهب وأجئ. شعرت أننى ربما أبدو مضحكة. وأنا أنظر إلى زوجى. كنت أقارن بين الرجل الجالس أمامى، والصورة التى كنت أحفظها له فى خيالى. كنت أتصوره. رجلاً ضئيل الحجم. أصلع الرأس. قصير الساقين يمشى ويداه متشابكتان خلف ظهره. وقد أسلم نفسه لحالة من التفكير العميق. مع أن زوجى - كما يبدو لى الآن - أجمل من هذه الصورة بكثير.

فى بعض الأحيان، كنت أعطيه أذنى. ولكنى كنت أخشى فخاخ الكلمات التى كانت تقودنى إلى مناقشة زوجية مستهلكة. قيلت من قبل بنفس الكلمات تقريبًا. ملايين المرات. وفى أماكن متفرقة من العالم. قررت أنه لا بد من

الوقوف فى وجه هذه المحاولة. ولكنى كنت أخشى العودة إلى الصمت من جديد. كانا الصمت يرهقنى. قلت ربما كان الحل الوحيد، هو توجيه الكلام وجهة أخرى. ومع هذا. من قال أن الكلمات يمكن أن تصبح جسور مودة بين الناس؟ أو حتى مجرد وسيلة اتصال؟ لنأخذ الوضع الراهن كمثال. أن زوجى يتكلم وأنا أستمع. ونحن بمفردنا فى مكان بعيد عن البشر، وفى أشد الاحتياج لأن يحدث بيننا ذلك التفاهم. مع هذا، فإن الكلمات كانت تخرج من فم زوجى ولها معنى معين. وعندما كانت تسقط على أذنى كانت تكتسب معنى آخر تمامًا. لا يمت إلى المعنى السابق بأى صلة، وكانت النتيجة الوحيدة لكل هذه الكلمات. اننا ابتعدنا عن بعضنا البعض أكثر من أى وقت مضى.

قمت من جديد. دخلت المطبخ. لم أطق الوقوف فيه، خرجت منه. تملكنى القلق. نفخت الهواء و تساءلت من جديد.

- ما العمل؟

تحول السؤال، بالنسبة لزوجى إلى محاولة إنقاذ. ربما كانت اول الكلمات التى تصله ويسعد بها.

قال بفرح:

- هذا السؤال هو البداية.

فكرت أن أقول له. اننى لا أقصد المعنى الذى وصله. ولكنى تصورت أن الصمت ربما كان أفضل. وفى هذه اللحظة حاصرنى المشهد الذى أحلم به فى كل ليلة. ابنى الذى لم يأت. وابنتى التى ستكون شقيقته والابنان لم يأتيا بإرادتنا نحن. زوجى تكلم كثيرًا عن متاعب الحياة. أجرة الحضانة ومصاريف المدرسة. قال أن عودنا أخضر وامكانياتنا لا تسمح بذلك. وأن تأجيل مجئ الطفل. ومجئ أخت الطفل. حتى تتحسن الأحوال. ربما كان أفضل. كان يتكلم عن امكانية السفر إلى دولة عربية. يسافر أولاً بمفرده. وبعد أن يهيئ الظروف المناسبة. يرسل لى. أذهب إليه. حيث نبقى هناك معاً. أربع سنوات. وعندما سألته عن سر هذا الرقم. قال لى أن القوانين لاتسمع بأكثر من أربع سنوات إجازة بدون مرتب. وبعد العودة. ستكون الظروف قد خرجت من عنق الزجاجة. وبمكننا انجاب الولد. ثم الفتاة. وينطبق علينا فى هذه الحالة المثل الشعبى الذى يقول. أن من يسعده زمانه ينجب الولد والبنت.

يقول زوجى اننا نستطيع تعليمهما - الولد والبنت - من الحضانة وحتى الجامعة. وإن الامكانيات قد تسمح لنا بشراء شقة للفتاة، و ايداع مبلغ من المال فى أحد البنوك للصبى. حتى يبدأ حياته. وستكون لدينا سيارة. وقد نستبدل الشقة الصغيرة بأخرى أكبر. من يدرى ربما كانت فيلا فاخرة. وقد نتمكن من شراء قطعة أرض فى قريته البعيدة. والتى لا يستطيع الذهاب إليها لضيق ذات اليد. ويحلق حتى السماء السابعة عندما يتكلم عن الذهاب إلى المصيف. فى فصل الصيف كل عام.

أصيح فيه:

- كفى تخريفًا.

يسألنى:

- ألا تحبين الأحلام

أقول له.

- اننى أكره الهروب إلى الأوهام

- كانت تصيبنى حالة من اللوعة عند الحديث عن الطفل. وفى الليالى الطويلة كان هذا الطفل يأتينى فى

الأحلام. كنت أحاول تحديد الصفات المشتركة والملامح العامة لأبناء أسرتنا. حتى يحمل هذا الطفل القاسم المشترك الأعظم منهم. أما عن أبناء أسرته فلم أشاهد من أفرادها سوى الصور التى يحملها معه.

فى كل يوم، كانت تأكلنى الرغبة فى أن أحادثه فى هذا الموضوع ولكن لأن الوقت الوحيد الذى نصفو فيه لبعضنا البعض هو الصباح، فقد كنت ارفض أن تكون بداية اليوم بالحديث عن هذا الموضوع الذى ليس سعيداً بالمرة. أجلت الموضوع طويلاً. وتراكمت الأمور فى الذهن والقلب و الأعصاب. وأوصلنا التراكم إلى ما نحن فيه الآن.

كنت أدرك أن صمتى. لا بد أن تكون له نهاية. وكان لا مفر من الحديث. ولا بد من تحضير ما سأقوله. وقد تساءلت عن الطريقة التى سأتكلم بها. لم يكن أمامى سوى ثلاث طرق لبدء الحديث، هذا إن أفلحت خلال الحديث فى القدرة على حبس دموعى حتى لا تتناوب الكلمات مع الدموع.

الطريقة الاولى: الهجوم هو خير وسيلة للدفاع. أبدأ بالهجوم عليه فوراً. ليجد نفسه فى موقف المدافع. وهكذا

أعفى نفسى من الوقوف موقف المتهم. كان طريقة جيدة. ولكنى لم أكن مستعدة لها من الناحية النفسية. كنت مهزومة وحزينة من الداخل. وتلك الطريقة تتطلب جرأة. قد لا تكون موجودة لدى.

الطريقة الثانية: أن ألف وأدور حول الموضوع الأساسى، دون التطرق إليه وأدفعه هو إلى الحديث. فالذى يتكلم أولاً هو الذى يضعف أولا. وهو الذى يتوه بين التفصيلات الكثيرة. ولكن خيل إلى أن اللف والدوران حول موضوع معين يتطلب قدراً من صفاء الذهن، قدرة على ترتيب الأفكار. وهذا ما لا أستطيعه فى الحالة المرهقة التى أمر بها.

الطريقة الثالثة: أن يقترب القلب من القلب، من يمتلك الشجاعة أن يفعل هذا. فى الزمن العصيب الذى نعيش فيه؟ أشك فى هذا. لم أكن مستعدة من الناحية النفسية. لا أستطيع أن أقول له عفا الله عما سلف. وليس أمامنا سوى البدء من الآن. من اللحظة التى نجلس فيها معاً. أن نحاول محو الماضى بكل ما فيه حتى اللحظات السعيدة التى مرت. وأن

نكون معاً. أبناء هذه اللحظة فقط. ولكن من يملك أن يفعل هذا؟

فكرت فى كل الأمور. واستعرضت قصتى معه. واكتشفت - وكم من الاكتشافات تأتى بعد فوات الأوان - أن علاقتى به كانت تمر عبر حالة من الغموض والسرية. وإن هذه العلاقة إن تعرضت لنور العقل. ربما تحطمت. ربما كان من الأفضل أن يبقى لهذه العلاقة غموضها وسريتها. وتذبذبها بين الفهم واللا فهم.

تمنت لو أن كلاً منا خلع قناعه، الذى يخفيه عن الآخرين. فنحن لا نمثل الآن. وعندما خطرت لى فكرة القناع. نظرت إليه. كان هناك مشروع ضحكة على شفتيه لم يولد بعد. وماتت الضحكة فوراً. ولكن فمه بقى مفتوحاً فترة من الوقت.

كنت لا أستطيع أن أتصور اننا بقينا معاً هذا الوقت دون أن نتكلم. مع أن هذا ليس بغريب على حياتنا. لكل منا واقعه الذى يختلف عن واقع الآخر. ولكل منا أحلامه التى يعيش معها مدة أطول من معايشته للآخر.

لى صديقة أحترم آراءها كثيرًا. وان كنت لا أفهم الكثير من كلماتها قالت لى وهى تعلق على حالى مع زوجى:

- المشكلة انكما فقدتما القدرة على الحلم.

ضحكت وقلت لها:

- أى حلم. أن نومنا كله عبارة عن جرى فى المسافة ما بين الأحلام والأحلام والكوابيس.

صححت لى كلامى:

- جرى فى المسافة من الكابوس إلى الكابوس

قلت لها:

- اننى أعرف حياتى أكثر قلت أنها أحلام.

طلبت منى ألا أخدع نفسى. قالت ببطء:

- لست من القادرين على الحلم. وزوجك هروبى وصل لحد العجز عن الحلم.

تصورت أنها تهذى كعادتها. تكلم المساء. وتحاول الانصات لصوت الرياح. وتقرأ وجه السماء.

قالت:

- عندما تغوص الناس فى بركة من الخوف على الغد، الخوف على لقمة العيش والملبس والمواصلات والموازنة الدائمة بين قلة الدخل وكثرة المنصرف. تعجز الناس فى هذه عه الحلم.

صحت فيها:

- أف أنت لاتتكلمين عنى وعن زوجى. أنت تتكلمين عن مشكلة مصر كلها.

أمسكت بى وكأنها اكتشفت اكتشافاً علمياً. كانت تقول:

- لقد نطقت بالمعنى الذى كنت أبحث عنه.

قالت وهى تحدث نفسها كالمجانين:

- وبدأت مشكلة الوكن عندما فقد تلك القدرة الفريدة.

سألتها ساخرة:

- ستقولين القدرة على الحلم.

أمسكت بى بقوة المتنى.

- نعم، أن فقدان القدرة على الحلم. نوع من الجحيم.

بدا لى كلامها. كنوع من المستحيل. ما بين النوم والنوم نحن نلهث جريًا وراء أمور لم نشبع منها أبداً. نحن لا نشبع حتى من أيامنا. ثم تأتى هذه المجنونة لكى تتلكم عن الأحلام.

القلب ينبوع حزن. وما زلت أخشى أن يكون الأوان قد فات. والأوان الذى أقصده، هو الوقت الذى يمكن فيه إصلاح ما فسد بيننا من الأمور.

هل فاتنا الأوان؟

سؤال وحيد تمنيت لو أننى سمعت الإجابة عنه من زوجى. فقط الاجابة على هذا السؤال.

٥١ نوفمبر ٣٨٩١

مدينة نصر – القاهرة

- ١ -

مجنون من يعمل عملة شكور. السراية الصفراء تصبح سكناه، طول عمره، و مستشفاه خلال مرضه. وقبره عندما تحين ساعته. برج من عقله طار. ويبدو - والله أعلم- أن أهله خلعوا ضرس عقله من بين أسنانه عندما كان طفلاً.

هل من المعقول، أن يحضر سكينًا حامياً. ويذهب بعد الفجر بقليل، الى دوار البهايم، ليقطع حبل الطلوقة، ويمسكه بيده. ويجرى ويدور فى العزبة. والسكين فى يمناه، عليها نقطة دم وحيدة تتحرك وسط لمعان نصلها.

بيسراه حبل الطلوقة - الرذى طالما عشر به أبقار العب كله. يشلب منه الدم. الذى تنز قطراته على هدوم شكور حيناً، وعلى الأرض أحيانا أخرى راسمة خطا يحدد طريقه من هلوساته الأخيرة.

قالوا، شكور إنخل. قالوا

، عبشكور اتهبل جاءت له مناخوليا فى نافوخه. وقرروا أن يبلغوا الحكومة حتى تأخذه فى عربية المجانين التى تغطى نوافذها. شبيكة من الحديد.

لى يكون البلاغ سليماً. لا بد وأن يكتبوا فيه اسمه الذى فى أوراق الحكومة. وهم لا يعرفون سوى الاسم الأول فقط: عبد الشكور. باقى اسمه لا يعرفه أحد غير كاتب دوار العمدة. الموجود فى البلد الى تتبعها العزبة. وهى بلدة بعيدة. لا بد من الركوب للوصول إليها.

أما شكور، فهو الاسم الذى تدلعه به زوجته الغرباوية. التى كان حضورها الى العزبة سبب البلاوى كلها. وعبد الشكور تنطق نسوان العزبة به، لأنه أسهل على ألسنتهن.

فى دوار البهائم. كان الثور يجأر لسابع سماء، صوته يهز العزبة. يوقظ النيام ويقطع عليهم حلاوة أكل الأرز ومنابات هبر اللحم مع الملائكة. بعد أن أختفى الأرز من حياتهم. ولم يعد للحم وجود.

صوت الثور حرك السمك النائم فى بطن الترة. فى سكون هذا الوقت هجت الطيور من أعشاشها. ارتعش الورق على أغصان الشجر. وتجعدت ملامح السماء فى صدى الصرخة.

كان الثور مربوطًا في جنزير من الحديد. والجنزير مثبت في وتد من الحديد. والوتد الذى من الحديد، مزروع، زرع بصل فى حبة من الاسمنت المسلح. ومع كل هذه الاستحكامات التى تربط الحبل مكانه. خلع الثور الوتد من الأسمنت المسلح، وبدأ يجأر كالمسعور من العزبة.

الذين صحوا من أحلاها نومة. يضربون كفاً بكف. وهم يفركون أعينهم من الدهشة. يقولون أن سرسوب الدم، الذى كان ينزل من بين فخدى الثور. قد رسم خطاً على الأرض. وأصبح من السهل معرفة إلى إين جرى.

شكور يلف على دور العزبة القليلة العدد. يخبط على البواب يفتش عليه.

ترى من تفتح الباب ما فى يده. فتصاب بفزع وهلع. وتزرع الباب فى وجهه حتى يوشك الباب أن يخلع من مكانه من الزراعة.

يحكى راوى العزبة، الذى يعرف كل ما يجرى فيها أن الثور كان يجرى بحثاً عن شكور. ليسترد حبله منه. ولكن عبشكور هرب منه مثل القرموط عندما يفلت دائماً فى

آخر لحظة من شبكة أمهر الصيادين. حتى لو كانت عيون الشبكة مثل خرم الإبرة. كان الثور يشمشم.. فى الأرض. وما أن يرى نقطة من دمه حتى يتبعها، إلى أن تعب من الرمح فى العزبة و داخ.

- ٢ -

هكذا هو. يتكلم ويحكى عن الناس. وإن كان لا يوجد من أهل العزبة من يجرؤ على أن يفتح فمه لكى يقول ولا كلمة واحدة. لسبب بسيط أن جميع أهل العزبة أتوا إلى الدنيا ليجدوه. لدرجة أنهم يتصورون أنه نزل من بطن أمه. شايب عايب. وأنه لم يمر فى حياته بالمراحل الى يمر بها الإنسان الطبيعى. من طفولة وصبا وشباب.

نادراً الرجال بوالدهم. وقال له الأطفال يا جدنا. وحبوا على يديه. لا يذكر أحد فى العزبة أنه سمع من يقول له: يا عرابى. ولأنه نزل من بطن أمه. وشعر ذقنه، الشعرة الواحدة منها. فى طول صابع المدرة، وشاربه يقف عليه الصقر. وهما معاً - الذقن والشارب - مغسولان بالبياض. فالكل لا يقول عنه سوى عرابى الشايب.

يقسم البعض أنه كان مع عرابى الكبير فى هوجتـه، وأنه كان يتكلم بعد عودته عن الولس الذى كسر عرابى.

البعض من أهل العزبة يقولون. انه هو نفسه عرابى الكبير صاحب الهوجة. المتعلمون من أبناء العزبة يصـرون على أنها ثورة عظيمة يكملون انه يختفى عن الناس خوفاً من لوم الناس له. و القبض عليه ومحاكمته.

وعندما يقول التلاميذ أن أبناء محمد على رحلوا عن مصر، يرد عليهم آباؤهم، أن عرابى الشايب نفسه لا يعرف أن هذا قد جرى منذ سنوات طويلة.

لا يعرفون له عمراً. يقال انه طبق المائة الأولى من عمره، وتعداها. وانه أكبر معمر فى بر مصر كله الآن. وانه سيكمل المائة الثانية والمائة الثالثة. حتى يصبح أول واحـد. من البنى آدمين. بعد أبونا آدم الكبير. وألاوده الأوائل. يمتد عمره بكل هذا الطول.

عمره من عمر العزبة. كـان فيهـا عنـدما ملكهـا التراكوة. وعايش الانجليز عندما عاشوا فيها فساداً. وما زال

يرطن ببعض من كلماتهم ولم يترك العزبة وهى تغير مالكيها.

أمر واحد لا خلاف عليه. أن النسوان فى العزبة أكثر من الهم على القلبز أما الرجال فعنصر منقرض. هاجر من هاجر. وهج من هج. وطفش من طفش. و الباقون ينطبق عليهم المثل الذى يقول: عد غنماتك يا حجا. قال واحدة واقفة والثانية نايمة.

يمر الرجال على العزبة، ويحضر إليها من يعملون فيها ويعودون من حيث أتوا. لكن الذين يعيشون فى العزبة رجال ثلاثة فقط. وكان سكان العزبة من النسوان. عرابى وناظر العزبة. كومان من العظام. كهنة من المفروض أن يتم شطبها من عهدة مخازن العزبة. أو أن يجرى معهما ما يتم من خيل الحكومة عندما تسلم النمر.

الرجل الثالث فى عزبة النسوان "شكور" كانت فيه شوية رمق. ولكن ما حصل منه بعد ذلك. جعل نقب كل امرأة فى العزبة. يطلع على شونه.

ـ ٣ ـ

وحكاية العزبة، هى نفسها حكاية اصحابها.

وإن كان اسمها الآن عزبة الستات. فقد تغير هذا الاسم أكثر من مرة. وقصة البنات السبع، اللائى يسكن الشكمة أو السراية الوحيدة فى العزبة، تستحق أن تروى. وهى ليست بعيدة عن موال شكور والطلوقة.

والسبع بنات، ولدن مرة واحدة. كانت ولادة عسرة. جاءت الداية وهى نفسها أم عبشكور ولدت كل نسوان العزبة. وكانت تقول مع كل ولادة، أنها مستنظرة، اليوم الذى تولد فيه مرات ابنها عبشكور.

قالت ذلك، حتى عندما كان شكور قطعة حمراء من اللحم فى اللفة. ولكنها- يشاء الحليم العليم - أن تولد بيديها. كل نسوان العزبة. ما عدا مرات ابنها شكور. وعندما جاءت ساعتها أوصته بأنه عندما يفرجها من لا يغفل ولا ينام. عليه أن يحضر داية من الضهرية. حددتها له بالاسم والكسم، والداية موجودة من يومها. ولكنه لم يذهب إليها أبداً. إنها القسمة والنصيب.

نعود إلى البنات السبع. كان المولود الأول بنتًا. سلمتها ام عبشكور الداية للواقفة بجوارها. وهى تبسمل وتقول: الله واحد. بلغ الأب الذى كان واقفاً فى انتظار البشرى غضبه، وحاول أن يبعد عن ذهنه أسماء الأولاد التى كان قد حضرها. واستعد بها. ليختار من بينها إسماً.

وعندما اكتشفت أن الأسماء قد عششت فى تلافيف مخه. حاول أن يونثها. وقبل أن يرسى على الاسم قالوا له أن الوجع مازال مستمرًا. وتشابك صراخ الألم مع بكاء الطفلة والبطن ما يزال منتفخًا. وأطلت رأس أخرى من الأم التى كان الطلق ما يلبث يذهب عنها ثم يأتيها.

ضرب الحاج آدم الميت. تليفونيًا للبندر. واهتزت أسلاك التليفون بين عزبة الميت. بعنف وقوة. وبين مركز ايتاى البارود. وخرج صوت الحاج هارداً يطلب حكيمًا من البندر القريب. على أن يكون حيكم ولادة.

حضر الحكيم وسلم، واستجوب الداية وهددها، وسال وفحص. وعاين وكشف. واكتشف أن الأمور أكثر صعوبة مما تصور فى البداية. طلب مساعداً وتومرجياً، وحكيمة ودكتور بنج. قالها هو " أخصائى تخدير".

عادت أسلاك التليفون الوحيد فى العزبة تهتز. تحاول أن تخفى صخب الكلمات بداخلها. وعندما شاهد الصبية فى الغيطان، أسلاك التليفون تهتز بعنف، مع أن الرياح كانت ساكنة. وصنع الصبية آذانهم على أعمدة التليفون حتى يسمعوا ما يقال.

تحولت الولادة الطبيعية إلى عملية فتح بطن. قال عنها آدم الميت " قيصرية". عندما أخرجوا الطفل الثانى، قالوا أن الله مالوش تانى، وكانت بنتًا وفى ركن من بطن الأم كان هناك الثالث وما إن سمعوا بكاءها حتى هللوا فى العزبة صائحين:" الثالثة ثابتة.

وقبل أن يعيد الحكيم كل شئ إلى موضعه داخل بطن الأم.

اكتشف.. حكيم التخدير أن هناك، أربع أطفال آخرين فى حالة تكور فى ركن البطن الذى اتسع جداً بفعل الحمل.

قال الطبيب:

- يتربوا فى عزك يا حاج

وقالت الحكيمة:

- فيهم الخير والبركة

قال الناس فى العزبة، أن البنات عندما يأتين، فوق رؤوس بعضهن، سيقطعن هدوم بعضهن من الخناق، ولن يتفقن على أى أمر ابداً. ولكن المتعلمين من أبناء فلاحى العزبة، الذى استبدلوا الفأس بالقلم. قالوا كلمة، كانت العزبة تسمعها لأول مرة فى حياتها: توائم.

جلس الحاج آدم الميت على شط ترعة بحر النيل. عوج الطاقية أم رفرف، وولع السيجارة من أختها وهو يترجم أسماء الأولاد، فى ذهنه إلى أسماء صبايا. يؤنث المذكر بسهولة تاممة. فواز أصبح فوزية، وسعد جعله سعدية. وقدرى، قدر الله ولطف هو قدرية. ولطفى أصبح مستحيلاً والممكن فقط هو لطفية. ونبوى: نبوية. وعلوى: علوية ويسرى يسرية. تاهت، وكان يتصوران حلها صعباً. ولكن ما أيسر العثور على الحل.

كانت الناس تكشر من مجء بنت واحدة. ويحملون همها، حتى يجيئها العدل فى بيت العريس. ولكنه سبحانه وتعالى، كان كريمًا معه. رزقه بسبع بنات من بطن واحدة.

مع انه كان فى أمس الحاجة إلى حتة عيل. فالعزبة لن تجد من يرثها. واسم الميت لن يجد من يحمله بعد ذلك.

ساعة أو أكثر تفصل بين الأخت الكبيرة والأخت التى فوق رأسها. ودقيقة أو أقل هى التى تفصل بين الشقيقات الأخريات. لم يعرف الناس، كيف يفرقون، بعد ذلك. بين هذه الأخت وتلك أبداً.

ـ ٤ ـ

- صلوا بنياع النبى.

يقولها عرابى الشايب. ترد عليه الحلقة التى تحيط به على شكل دائرة:

- عليه أفضل الصلاة وأذكى السلام.

يقول بعد فترة من الصمت:

- كمان زيدوا النبى صلا.

تتحول الهمهمة فى الرد عليه، إلى هدير صامت:

يحكى عمى عرابى الشايب، أن الله جلت قدرته، عندما خلق الدنيا وأنزل فيها أبونا آدم. ومن ضعله خلق له أمنا حواء.

يقاطعه الجالسون حوله:

- عاوزين تكمل حكاية عبشكور والتور. سرحت ليه. الحكاية كدة فرشحت.

يشرح لهم لو صبر القاتل على المقتول. كان مات لوحده. الصبر يا ابن آدم مستعجل. ما هى الحكاية عن شكور والثور وما جرى لهما.

ويستأنف الحكاية.

أن رافع السماء من غير عمد. جلت قدرته وعلت حكمته، بعد أن خلق الدنيا وعندما نزل أبونا آدم وأمنا حواء الى الأرض سارا طويلاً. لم يكن فى الدنيا كلها غيرهما. وعندما كانا يتمشيان فى الجنة. قبل أن يطردا منها. وجدا نفسيهما أمام جبلين كبيرين، يصلان ما بين السماء والأرض. والجبلان كان يحفظان توازن الأرض والبحار والهواء فى ذلك الوقت. ولولاهما لا ختل ميزان الكون.

كان أحد الجبلين عبارة عن الأرزاق. والآخر هو العقول. امتدت يده الكريمة النورانية. سبحانه وتعالى. قدمت لكل منهما رزقه. ووقف جدنا آدم وجدتنا حواء ينظران إلى

كوم العقول. كانا ينتظران أن تمتد يده سبحانه وتعالى. وتقدم لكل منهما عقله.

طلب آدم عقلاً ورغبت حواء هى الأخرى فى عقل. وان كانت لم تفهم هذا الشيء الذى يطلبه آدم.

قال لهما جلت قدرته. أن الأرزاق يوزعها على عباده. أما العقول فالأمر بختلف معها. كل بنى آدم يختار العقل الذى يناسبه. وهكذا اختار جدنا آدم عقلاً من جبل العقول. وآختارت أمنا حواء عقلاً.

ومن يومها وحتى يوم الموقف العظيم. والله سبحانه وتعالى- يوزع الأرزاق على عباده. ولكن كان إنسان هو الذى يختار عقله.

تتفاوت الأرزاق. وتلك هى الحكمة التى لا يدركها البشر. فهو الذى يقسم الأرزاق. ولكن كل إنسان مسئول عن عقله. ولذلك نجد العاقل. ونقابل من عنده لطف. ونسمع عن المجانين الذين يسكنون السرايا الصفراء.

وقبل أن يكمل عرابى الشايب حكايته. تنهال عليه الأسئلة: أى الجبلين كان الى نواحى اليمين وأيهما على الشمال. جبل العقول أم جبل الأرزاق؟!

يرد ضاحكاً، انه لم يكن هناك حتى يعرف مكان كل جبل. يتحسر الذين حوله. لو كان الإنسان قد اختار رزقه، واختار الخالق لكل إنسان عقله. لما كان فى الدنيا غنى وغلبان. تتكاثر السؤالات. يشخط فيهم عرابى. أن كان الكلام له لذة، فإن الاستماع إليه له أصول.

لكن واحداً يقاطعه:

ما هو لو الواحد يختار رزقع. تبقى الدنيا آحر نزاكه.

يوقفه عرابى الشايب عند حده:

- ما اعتراض على مشيئته. من يقبض الأرواح، ويحيى الموتى. ويقول للشئ كن فيكون.

يستغفر لهم. فإنهم لا يعلمون.

ويكمل حكايته.

ـ ٥ ـ

عندما جاءت عيلة شكور. التى كانت أقرب إلى القبيلة من كثرة عددها. قالوا عنهم الغرباوية. أو الغرب. وعلى الرغم من مرور السنين، وكر الأيام، إلا أن اللقب أصبح جزءاً من الإسم. شكور الغرباوى.

والعائلة جرى لها ما يجرى لكل العائلات، البنات تزوجن، وكل بنت تبعت زوجها كظله. والناس الغلابة تناديهم لقبمتهم. وتشدهم هدمتهم الى حيث لا يعرفون. هج من هج من الغرباوية. وبقى من بقى فى العزبة.

وما إن مات الغرباوى الكبير. ثم مات الغرباوية العجوز. ودفنا فى قبور غريبة، هى قبور أهل الله، التى تسمعى قبور الصدقة. والموجودة فى قرية الضهرية القريبة من العزبة حتى صفصفت شجرة الغرباوية ولم يبق فى العزبة سوى شكور وأخوه الكبير.

الأب هو العمدان التى تشيل البيت. والأم هى مسماره. وما أن يرحلا حتى يكون البيت قد تهدم وتنبت من هديمه ورديمه بيوت جديدة.

وعبشكرو الذى جاء الى العزبة صبيًا. قالوا عنه انه رجل سابق لأوانه. وانه يرمح قبل زمانه. ما إن استقرت العائلة فى العزبة، حتى تقلب فى أكثر من شغلانة. ما من عمل فى العزبة إلا وقام به. ركب الجرار، وأمسك بالمحراث، ورفع الفأس وقلب بها الأرض.

حتى ماكينة رفع المياه فى شكمه الحاج آدم الميت، كان يقف عليها. يعرق وتبرز غابة خطوط عضلات جسمه، وخريطة عروقة.

سهر الليل خفيرًا على المال والمحصول والزرع والغلة والبهائم والتقاوى والنائمين. وسافر إلى البنادر يبيع المحصول ويعود بالأموال فى جيبى الصديرى. أن كون الفلوس فوق صدره يجعله يبدو مثل صدور البنات البكر اللاتى لم يرضعن ولم تتهدل صدروهن.

إنعزل شكور فى بيت لوحده، مجاور لبيت أخيه الكبير. الذى أصبح بمثابة أب جديد له. تمنى شكور أن يقيم مع أخيه. ويد مع يد تساعد. ولكن زوجة أخيه كانت اقرب إلى سنه. وأخوه فى سن أبيهما معاً. وقد خشى عليها وعلى نفسه وعلى أخيه.

عاش فى البيت المجاور لبيت أخيه. وزوجة اخيه تغسل هدمته، وتطبخ لقمته. وتكنس مطرحه، ويأكل معهم أحيانا من نفس الماعون. يجلس على الطبلية. كأنه و احد من عيلة أخيه. يوزع عليه معهم المثابات كأولاده تمامًا.

وما إن أصبح شكور فى بيت لوحده. حتى شاور الناس لبيته، وقالوا: بيت العازب. والعازب فى نظرهم ديله نجس، معوج لا ينعدل حتى وان علقوا فيه قالب من الطوب النى.

ولأنه عازب، فالكل يتحدث عن زواجه. قالوا أن سرن الزواج فانه. فقال بدرى. ردوا عليه. ما بدرى من عمرك.

كان اسمها فى البدء عزبة الموردة. لأنه على الناحية الأخرى. وعلى شط بحر النيل. كانت توجد موردة، على الضفة الغربية لبحر النيل، يستخدمها الناس فى ركوب المعدية. لكى يعبروا بحر النيل إلى الناحية الشرقية. حيث تبيت الشمس وتهج وتنام طوال الليالى.

فى الموردة تغشل النسوة الغسيل، وتشرب البهائم وتستحم وفى الموردة. يأخذ الرجل غطسين صباحاً. فيعرف الجميع، النسوان قبل الرجال. انه نط فى الليل على حريمه.

ولكن عندما آلت ملكية العزبة الى دار الميت. على يد الميت الكبير بعد أن تاجر فى البطاطس، أيام أن كانت محصولاً لم يعرفه العب كله من قبل. ولعبت البلية فى يده. واشترى زمام العزبة بكامله. حفر فيها ترعة خصوصى. لأن بحر الرنيل ابتعد عن العزبة. وبعدت العزبة عنه، وأصبح يفصله عنها. أرض طرح البحر. وجسر البحر العالى. والترعة الجديدة، وجسر صغير ثم العزبة بعد ذلك.

الكل يعرف أن أبو البنات اسمه فى أوراق الحكومة آدم الميت. وان كان الرجل لا يحب أن يناديه الناس سوى باسم فؤاد الأول الميت ملك الناحية. مع أن فؤاد لم يكن اسمه أبداً. وابنه سيكون اسمه فاروق الأول الميت، وسيكون ملك الناحية والنواحى المجاورة. وكان يينوى أن يطلب من ابنه ىف وصيته.التى مات دون أن يخط حرفاً واحداً فيها. أن يكون ابنه الأول: ذكراً. وأن يكون اسمه أحمد فؤاد الثانى. على أن ينجب فؤاد الثانى، بعد عمر طويل. فاروق الثانى.

ولكن لقبه طلع على شونه.

كان هذا يجرى فى الشكمة. كما يقول عنها آل الميت. أو السراية كما يحب الناس أن يقولوا عنها. أما بيوت العزبة. فما كان أبعدها عن كل هذا.بيوت تسكنها الكآبة. تفيض بالشاعرية لم يريد أن يراها هكذا. والناس فيها أشبه بالمحتضرين.

ترف حول العزبة، من كان جانب. أرواح الرجال المساكين. والنساء اللاتى لم يكن جميلات، والأطفال الذين من كثرة لعبهم فى التراب. أصبحوا أطفالاً من التراب. تحدد ملامح وجوههم خطوط الذباب التى لا تطير من فوق الوجوه إلا نادراً.

ـ ٧ ـ

كانوا يمزحون ساعة العصارى.

ينكتون معه. فالعيال جبنت فى ظهره. صلبه ممتلئ عن آخره بالخلفة ولا بد وأن يتم تفريغه. خوفوه من أيام قد تأتى فينهد حيله، ولا يستطيع أن يصلب طوله. وساعتها لن يستطيع سوى أن يقول:

- يا ريت اللى جرى ما كان.؟

يكمل رجل عجوز، وهو يرمى العصا التى فى يده على الأرض.

- وكلمة يا ريت. عمرها ما عمرت بيت.

كان يسايرهم فى الظاهر. وان كان الكلام يضايقه يقول لنفسه عندما يصبح بمفرده. لماذا لا يطلعه هؤلاء المخاليق من أمخاخهم المتعبة؟ هل انتهوا من جميع مشاكل حياتهم ولم يبق سواه.

وهكذا أصبح شكور حكاية. البنات يعملن له أعمال العشق والمحبة. والنسوان تعاير رجالتها فى ليالى التعب والضنى برجولة شكور.

والذين يتكلمون عنه من بعيد لبعيد يقولون عنه أنى فلاتى وبتاع نسوان. يفك نفسه فى ليل العزبة. أو أنه يحمل همه ويهرب إلى بلاد لا يعرفه أحد فيها. يتسرمح على هواه، ويفعل ما يشاء.

أما هو فكانت تصله طراطيش كلام فيضحك لا يؤكد ما يقال ولا ينفيه يتلذذ بذلك الغموض الساحر الذى يحيط به. يغمغم بأصوات لا تعنى أى شئ. سألوه عن الزواج. أكلوا وجههفى الرايحة والجاية قالوا: " ما آنش الأوان". تساءلوا أن كان يضع عينيه على بنت من بنات العزبة. أو بنت من بلد مجاور. قال هو: أين هى هذه البنت؟

كانت البنات يخشين أن يصوم شكور، ويفطر على بصلة. كن يقلن عندما يجلسن فى قعدات كلام وحديث بعيداً عن الرجال. أجدع الرجال يقعن دائماً فى أنتن النساء. وأجمل النساء وأحلاهن يكون بختهن فى الراجل الخيخة. وشكرو فى نظرهن رجل مجدع. رجل بحق وحقيق.

والبنات معهن الحق. والنسوان معهن كل الحق وابن عمه. فشكور طول بعرض. خشبه تكون فى أيام الرخاء التى ولت ولن تعود أبداً. عود سرو. الشعر الأسود الغزير يغطى جسمه كله. وسمانى قدميه أكثر سمنة من سمانات أرجل النسوان.

وعندما سلم عليك، تتوه يدك فى دروب لحم كفه الكبير، يترك فيمن يسلم علريه، أنطباعًا بالمتانة والأطمئنان.

شنبه كثيف وخشن، مثل الليفة التى وقعت لتوها من فوق الشجر. ولم يبريها استعمال البنى آدمين لها بعد. وذقنه مثل قطعة الأرض الى نبتت فيها الحلفاء. شعرها حاد ومدبب ومشكوك.

يعمل عبشكور كثيراً، ولا يضحك حتى لرغيف الخبز الساخن الخارج لتوه من الفرن. وجه عكر، يقطع الخميرة من البيت، صموت وجاف. مع انه يعيش أيام روقان البال. من المفروض أن يرمى كل. حمول الدنيا وراء ظهره. الذى يحصل عليه من عرقه. أكثر مما يأكله زوره الفردانى. لا عيل ولا تيل ولا إمرأة تحمله الهم بدرى.

كان يسمع كل هذا الكلام عندما يذهب إلى بيت أخيه الكبير. لم يكن يعلق فى بعض الأحيان. كان يصمت. وكل فى العزبة كان يضرب كفاً ويتساءل – ياما فى الجراب يا حاوى.

– ٨ -

انشغلت الحاجة فى تربية البنات السبع. وقال الحاج الميت، أنها مشغولة فى تربية سبعة صبيان جاءوا من بطن

واحدة. يصر على أن يناديهم بأسماء الأولاد، ولا يقول لها إلا يا أم فلان.

أما هى فعندما لا يكون فى البيت. تحاول أن تنادى كل واحدة باسمها. كانت تخشى من الأيام القادمة. أن تكبر الحكاية فى عقل الحاج. ويصر على أنهم أولاد. وقد يصدق نفسه مع مرور الوقت.

أحضرت لهن مرضعات من العزبة. وعندما لم تجد من هاته المرضعات اللبن الكافى. يقول عرابى الشايب أن الحاج الميت فكر أن يقدم لهن لبن البهائم. ولكن الحاجة رفضت. فالزريبة والدوار فيهما بهائم من كل صنف. وهى لا تضمن أن يكون الحليب جاموس أو بقرى. إلا أنها كانت هى التى تحلبه بنفسها.

- كان الكلى فى العزبة ما يزال يذكر حكاية الولد الذى رضع من لبن حماره. وقد استطالت أذناه مثل اذنى الحمار، وكان ينهق فى بعض الأحيان مثل الحمير. ويقولون أنه كان يتلذذ بأكل البرسيم والتبن. أما عن ضربه لأمه وأبيه، ففى العزبة حكايات تنقل الجبال من أماكنها. وت جعل بحر النيل يجف مرة واحدة.

أرسلت تبحث عن مرضعات من عزب وكفور وبلدان مجاورة. المرضعات القادرات من أصحاب الأرض، رضعن البنات سلفاً ودينًا. نجدة وجدعنة لمواجهة موقف صعب. والمرضعات الفقيرات كان يحصان على الأجر بعد ممانعة وعتاب. وكانت الواحدة تلهف بعد الرضعة أكلة معتبرة حتى تعوض ما فقدته من لبن صدرها. الذى لم يكن يطفى طفلها بالعافية.

المرضعات. سواء الغنيات أو الفقيرات. أعطين البنات اللبن المطلوب. ولكنهن كن عاجزات عن تقديم الحنان المطلوب لهن.

يقسم عرابى الشايب أن حكاية المرضعات أوقفت حال البنات. كل شبان البلد، كان عندهم شك أنهم أخوة للبنات السبع من الرضاع. وهكذا حرموا عليهن. كان الناس يتصورون أن المخ الواحد قد جرى تقسيمه من رحم الأم على سبعة رءوس. مما جعل أياً منهن لا يوجد لها عقل كامل وسليم.

وهكذا، مال بخت البنات السبعة مرة واحدة. ولم يعرف الفرح طريقه إلى شكمة آل الميت بعد ذلك أبداً.

- ٩ -

وبينما كانت الحاجة تربى البنات. كان آدم الميت فى انتظار ابنه الذى لم يجئ بعد ذلك أبداً. حملت الحاجة ومن ضخامة بطلنها. أدرك الرجال أن فى بطنها اكثر من جنين واحد. وان كانت الأجنة قد جاءت فى المرة الماضية بنات. فمن المتوقع أن يكونوا ذكوراً هذه المرة.

منعها من أن يراها أحد العزبة. أو العب كله خوفا من الحسد. قالت له أنه لا يحسد المال سوى أصحابه، فتشاءهم من كلامها.

لم يتكرر حضور الداية.

كان الحكيم والمساعد والتومرجى والممرضة وحكيم التخدير هم أنفسهم الذين جاءوا من قبل. جاهزون لمجرد أن جاءها الطلق الأول. معنى الوقت وتسرب دون حدوث شئ. صريخ أصوات ومناهدة وفرهدة. ودعاءات يارب، يا كريم. أدعية مرفوعة لصاحب الخيمة الزرقاء التى تغطى الكون أن ينتعها ويقومها بالسلامة. ويأخذ بيدها.

بحثوا عن أنبوة أوكسجين. ودماء من نفس فصيلة الحاجة. تلك الفصيلة التى لا يعرفها أحد. استطال الوقت، وخرج الطبيب. يضرب كفاً بكف. قال أنه بكل ما فى طاقة البشر. ولكن إرادة الله، فوق كل جهد. خرج السر الالهى أثناء عملية الولادة. ولكن ما أصاب الحاج الميت بالجنون. معرفته اللاحقة. انه كان فى بطنها سبعة أجنة ذكور. ولكنها كلها كانت ميتة.

يعلق عرابى الثياب:

- اسم على مسمى. ميت قبل أن يحيا.

تحولت حكاية الأسماء الرجالى - أصبحت هوسًا خاص عند الحاج الميت. لا ينادى أياً منهن سوى بأسماء رجال. كان مصراً على انهن أبناءه. ولكنه فى لحظات الحقيقة القاسية، كان يدرك انهن بنات.

ولهذا قرر ذات مساء أن يتزوج مرة أخرى. من إمرأة سبق لها الزواج والإنجاب أكثر من مرة، حتى تكون نثائية مضمونة. وهو من ناحيته متأكد أن عنقود خلفته ما تزال فيه أطفال ذكور يشعر بهم كثيرًا.

رحبت بناته بذلك. سيحضر لهن أما وصديقة قبل أ، تكون زوجة اب. ولكن حالة التوهان التى كان يمر بها من وقت لآخر، أجلت مشروع الزواج أكثر من مرة.

بدأ يطلب من الآخرين فى العزبة ألا ينادوا البنات سوى بأسماء الرجال، وأرسل فى طلب ترزى عربى من المركز، وأجلسه فى المندرة الخارجية، ودخل الحاج الميت حتى يأخذ مقاسات البنات. لكى يفصل لكل واحدة ملابس رجال بلدى.

وبعد أن أعطى الترزى المقاسات. ودفع له ما طلبه. سواء أجرة التفصيل، أو ثمن القماش الذى كلفه أن يشتريه بنفسه من المركز كنوع من توفير الوقت. انصرف الترزى مع تنبيهات الحاج الميت بضرورة الأسراع فى العمل. لأن الوقت لم يعد يحتمل التأخير.

البنات كن ينفذن ما يطلبه الحاج الميت أمامه. ولكنهن كن يمارسن أنوثتهن من وراء ظهره. وعندما كان يفاجئهن وهنى على هذا الحال.

كان يطق عرق من نافوخه، ويتحول رأسه آلى نافورة من الدماء ويهدد بضرب النار.

مات الحاج الميت بحسرته. وكانت بناته السبع يطلبن له إحدى الراحتين: الشفاء أو الموت. لأنه لم يكن هناك أى حل وسط. رحل عن دنيانا ودفن دون أن يسمع كلمة يابا من ابن من صلبه.

قبل وفاته. قال له عرابى الشايب، على سبيل التعزية، أن من يخلف لا يموت أبداً. نهره قائلاً: أن من يخلف ولداً لا يموت. أما الذى يخلف البنات فهو يموت قبل أن يموت.

سارع عرابى بتغيير اسم العزبة، عزبة المورة. التى تحولت إلى عزبة الميت، أصبح اسمها عزبة البنات. وبعد أن فات البنات قطار الزواج. ولم يصل العريس أبداً. قالوا عزبة الستات. لأن الناس فى الجهة كلها لا يعرفون كلمة عانس.

ولكن أولاد الجيهة الذين يدرسون فى البنادر القريبة، قالوا اسمين من عندهم. أن جرى الكلام أمام أى خباص،

ينقل الكلام لصاحبات العزبة. يقولون الأوانس. و أن كان السر مضموناً. والمجلس له من يحافظ على امانته يقولون: عزبة العوانس.

وإن كان هذا الاسم قد ظل متداولاً بين الرجال فقط ولم يجرؤ أحد، حتى ناقلى الكلام. على نقله الى البنات فى الشكمة أبداً.

- ١٠ -

وعرابى الشايب نفسه حكاية، ورواية، لا يجرؤ أحد على حكايتها خوفاً من لسانه. من يتكلم عنه، يجعل من نفسه موضوعاً لحكاياته - أى حكايات عرابى - حتى يوم الموقف العظيم.

وان خلت حياته من الحكايات. فعرابى الشايب هو أبو التفانين نفسها. يؤلف لنفسه، كما يؤلف لكل خلق الله حكايات. ولا حواديت ألف ليلة، التى عرفها أهل العزبة من مسلسل الخامسة والربع، وليالى رمضان الطويلة.

أخذ عرابى براحة فى سلخ كل خلق الله بلسانه. دون أن يجرؤ أحد، على أن يرد له، ما يقوله، ولو بكلمة واحدة، توحد ربها.

ولكن هذا لم يمنع الناس، من الكلام عن عرابى. اما وهم فى براح الغيطاننى. أو تحت اسقف بيوتها. يقولون عنه همسا، أن لسانه فى طول التلفيعة، يمكنه أن يخرجه. لكى يلف رأسه به. وربما يستطيع أن يلف به جسمه كله. من أصابع القدمين حتى شعر الرأسى بعد أن زحف الصلع - الذى يسمونه القراع - الى كل رأسه.

يبالغ البعض. وهل يملكون سوى المبالغات؟ فالأرزاق محدودة. وكل ما حولهم. يمكن أن يعدونه على أصابع اليد الواحدة. يقول البعض. أن لسان عرابى الشايب يمكنه أن يمتد ويمتد حتى يلف بر مصر كله، وانه بعد أن يلف به البر ومن فيه. قادر على أن يبتلعه من جديد. ويضعه داخل فمه. ويقولون أن هذا اللسان عندما يتم ابتلاعه، يدخل داخل جسمه كله. وليس فى فمه. وان لغلوغ اللسان يوجد فى بطنه الجوانيه. انه أطول لسان فى البر كله.

وعرابى يحتاج لأن يتكلم ويقول ويحكى. ولكنه فى أمس الحاجة لأن يجد من يستمع الى ما يقوله. لأن من يتكلم دون أن يستمع إليه أحد. أى يكلم روحه ومن يكلم روحه يصبح مجنونًا.

وهو يقول، أن الله جلت قدرته، لحكمة لا يعلمها سواه. يضع حكمته على ألسنة من يزحفون على أربع. ومن يتعكزون على ثلاثة. فينطقون بها. انهم الأطفال والشيوخ. ذلك انه لا يحب كلمة العواجيز أبداً.

كانت الحكمة والنبوءة على لسانه وهو طفل، وعادت له بعد أن أصبح شيخاً. يقاطعونه: وهل كان عرابى طفلاً فى يوم الأيام؟

والشيوخ مثل البيوت القديمة. التى لا تسكنها سوى الذكريات. فاكهة الأيام الجميلة. وعندما يحكى وتشتعل الكلمات من بعضها البعض. مثل نيران الشتاء، فهو لايطلب من الذين يعطونه اذانهم. سوى أن يكون لكل منهم اذنا حمار، وصبر أيوب. وان يغلق فمه بالضبة والمفتاح. لكى لا يضايقه بأى مقاطعات حتى لو كانت سؤالات عما يحكيه.

أن شهوة الشيوخ تنتقل بمرور الوقت الى الفم. يكون عليه. اما أن يفكر فى الأكل بشراهة، أو الكلام. ولأن معدته لا تساعده. وجيبه لا يسعفه. ولا توجد فى بيته من تعد له اللقمة الطرية. فهو براوى وحدانى فردانى. ولأن الكلام أسهل. وليس عليه جمرك فيصبح الكلام هو كل شهوات الدنيا جميعًا.

لقد أصبح صوت عمى عرابى ضعيفاً. وتسلل له الوهن شيئًا فشيئًا. ودون أن يدرى، لا عمى عرابى نفسه، ولا الذين يستمعون إليه كل ليلة. أصبح استمراره فى الحكى، يشكل له صعوبات كثيرة. وتدفق الكلمات لم يعد سهلاً وبسيطاً، كما كان من قبل.

إلا أن تفاصيل الذكريات الموغلة فى البعاد، لم تكن قد ضاعت بعد فى سراديب الشيخوخة الضبابية. كان يحتفظ فى صندوق عقله العجيب بمخزون هائل من النوادر واللطائف والنكت والمحن. وما زالت العيون تتسع عن آخرها وهى تستمع لحكاويه. وكل الآذان تطقطق من الدهشة وهى تشرب كلماته.

يحاول الابتعاد عن حكاية شكور والطلوقة والستات يلحون عليه فى العودة إلى الحكاية. يقول:

- وفروا خضنكم. اسمعوا الكلام لآخره.

وقبل أن يحكى.

- طفوا ناركم. حا أقول لكم كلام تنسوا انكم سمعتوه. وانه طبل على ودانكم قبل كده.

أن الزمن يطير. لا تعرف من أين له بهذه الأجنحة التى تمكنه من القدرة لى التحليق. ولكنه يمضى حتى دون أن ندرى.

كان عرابى فكها فى حكاياته، ابن حظ ولسانه ينقط شهد. ابن نكته. يحكى فيضحكون. ولكنه ما أن يخلو إلى نفسه. حتى تتجمع الدموع فى مآفيه. ويبقى مشروع الدمعة معلقاً فترة من الوقت، دون أن يتحول إلى دمعة تريح العين وتنزل منها. أو أن تجف لكى تعود العين كما كانت.

والذين يضبطون عرابى الشايب فى هذه الحالة. يضربون كفاً بكف من أحوال الدنيا: يضحك الناس ويحوش العياط لنفسه.

- ١١ -

يوم جديد، من أسبوع وافد، من سنة مغايرة. ولكن العزبة ظلت كما هى. كل ما كان يتغير فيها، بشكل جوهرى، كان اسمها فقط.

تستبدل الأرض رداءها من الزرع والنبات، ويولد أطفال، ويودع الحياة شيوخ، ويموت رجال ونساء فى عز الشباب وميعة الصبا.

ولكن العزبة كان طرية ما تزال، وكأن يد الخالق - سبحانه وتعالى - انتهت لترها من خلقها منذ لحظات. ومن ينظر إلى العزبة. يبدو له، وكأن الحياة كلها قد بدأت فى هذه العزبة.

وشكور يعمل فى أكثر من شغلانه. علاف بهائم العزبة، يرعاها، ويؤكلها ويشربها. وأجره الذى يحل عليه مقابل هذا العمل. وقت الفجرية، يذهب الى الشكمة، يدير ماكينة المياه، حى يملأ الضهاريج كلها. لزوم البنات أو الستات اللاتى يسكن الشكمة.

وأهل العزبة يقولون انه غويط، وأنه ينظر الى بعيد. ربما كان يحلم بعلاقة مع أحد من بنات الميت. بنات وحيدات فى سراية مهجورة. وشكور الطلوقة، يذهب إلى الشكمة وقت الفجر، ولا يعود إلا بعد أن تفرش الشمس كل مكان فى العزبة.

قالوا فى العزبة، انه يطلع الشكمة بعد أن يملأ الضهاريج، وهنا تختلف الروايات. البعض يقول انه يعاين الصهاريج بنفسه، ويعرف أن كانت قد إمتلأت عن آخرها. والآخرون يحلفون على المصحف الشريف، انه يفطر مع البنات، عسل نحل ورقاق غرقان فى السمن، وبيض مقلى، وبراد شاى معتبر والذى منه.

وعند الذى ممنه هذه تختلف التفسيرات، وينفتح الباب واسعاً أمام خيالات الجميع. لكن شكور يواظب على رفع المياه الى الشمكة كلر صباح، والطلوقة عمل ثالث، يقوم به وان كان لا يحصل على أجر مقابل عمله.

يقول عرابى الشايب. أن شكور فاتح الصريف فى حكاية أجرته، فقال له انه ينفذ كلام الستات وعلى شكور أن يكلم صحابات المال أولاً.

ولكن البنت التى فى يدها الحل والربط، رفضت. قالت لشكور أن الحلوان الذى يحصل عليه، من الفلاحين يكفيه، انه لو حرن ورفض الشغل، سيكون هناك الف من يقبل العمل، بدلاً منه. بدون مليم واحد. لأنها وصلها أن شكور يحصل على جزء من ثمن العجل عندما يولد. ويشارك عليه فى بعض الأحيان.

وعرابى الشايب بحلف بالايمانات. وبرحمة من ماتوا، أن البنات أرسلن الى البندر سراً، من اشترى لهن نظارة معظمة، حتى يرين من بعيد ما يجرى بين الثور والبقرة.

على أن البنات كن مشغولات بالعريس الذى لم يأت أبداً. كن يرسمنه بدموع أعينهن. انهن سبع بنات. ولكن العريس كان واحداً. طول بعرض. والشعر الغزير يطل من شباك صدره.

وبعد أن راح زمن الزواج، وولت ايامه. جاءت العنوسة. فعندما لا يأتى الرجال فى الوقت المناسب تطل العنوسة. أن الزغب الخفيف يبنبت وينتشر على الشفتين قبل أن يتحول مع مرور الوقت الى شارب. والعيون تبرز من

الوششوش. والنظرات تصيبها حالة من الزغلله. مع كرشة النفس وسقوط الشعر. يبرز الصدر والمؤخرة بصورة متنافرة مع باقى الجسم. وكأن هناك من يفرغه مما بداخله بإستمرار.

قال الرجال: أن سوق البنات واقف. والبنات قلن: ما عدش بيجى منه، وأصل المشكلة، أن كل بنت تحمل فوق رأسها طين يسد عين الشمس. ورغم وجود عدد من الشبان الذين فى سن الزواج فى زمن مضى. إلا أنهم كانوا من التملية و الأجرية، الذين لا يجرؤ واحد منهم على رفع عينيه فى واحدة من البنات.

أما الشبان الذين يناسبون البنات فأين هم. على الأغلب لا بد وأن يكونوا من أصحاب الطين مثلهم. أبناء أكابر وأعيان وأجاويد. حولهم فى العزب المجاورة. ولكن كيف يتعرفون على البنات؟!

زمن الخاطبة ولى ولن يعود. وفرص التعريف على الشباب أصبحت مستحيلة. لا البنات يذهبن الى البنادر القريبة، ولا الشباب يحضرون الى العزبة.

ميلة بخت. الرجال الذين يمكنهم التعامل معهم بسهولةلا يصلحون أبداً للزواج من سمع عن واحدة من بنات الناس تزوجت من نفر عندها. والشباب الذين خلقوا للزواج من بنات الميت. أبعد من السماء العالمية. لا يعرفونهم سوى بالاسم فقط.

مشكلة، لم يكن هناك من يبدو مستعداً لحلها. أو حتى محاولة حلها. بل انه لم يكن هناك من يجرؤ على الكلام فيها مع البنات. من خلف ظهورهن فقط، كان الكل مستعداً أن يقول، وان يحكى وأن يتكلم.

على أن عرابى الشايب كان أكثر أهل العزبة حزنًا. ليس على مصير البنات. ولكن على نسل آل الميت. الذى وصل إلى البنات السبع. وأصبح مهددًا بعدم الإستمرار، أمر رهيب أن تنقرض عائلة لها أصول قديمة. أمام عينيه وهو لا يستطيع أن يفعل اى شئ. سوى الفرجة والحسرة والكلام.

بعد العريس الذى لم يأت، رسمن الطفل الذى لن تراه واحدة منهن، منحنه اسمها ورسماً. وتناولت الكلمات مع دمع العين. تساءل الناس فى العزبة: هل مازالت فى المآقى دموع؟

يقول عرابى الشايب: انهن كن يرسمن الطفل المستحيل يوم الحيض. كن يجمعن الدماء. فالعادة تأتى لهن فى وقت واحد. يغمسن أصابعهن. أصابع الستات الطويلة والجميلة والناعمة. فى الدماء. ويرسمن على الحيطان شكل الطفل. فى البداية، كانت كل واحدة ترسم طفلاً يخصها وحدها. ولكن مع مرور الوقت، وتسلل حالة من الحزن الى نفوسهن. بدأن يشتركن جميعًا فى رسم طفل واحد. وكل واحدة ترسم الجزء الذى تحب رسمه. الجزء الذى حلمت به لوحدها من الطفل. وفى النهاية يكون هناك طفل اشتركن جميعًا فى رسمه. وبعد أن ينتهى الرسم. تبدأ الخناقات على ملكية الطفلر المرسوم.

هذا ما كان يجرى فى الليالى الطويلة..

- ١٢ -

لا أحد يعرف فى العزبة، من التى فكرت لأول مرة فى حكاية الطلوقة. و الصعوبة ناتجة من أن الناس فى العزبة لا يستطيعون التفرقة بدقة بين الاخوات السبع. الملامح متقاربة، وهن يعشن فى عزلة تامة عن الناس.

لدرجة أنه يقال فى العزبة، ربما فكرن مرة واحدة، فى موضوع الطلوقة وهن أيضاً اللاتى إختـرن عبشكور ذات نفسه، دون غيره من خلق الله. لكى يتولى حدوتة التور.

كان عبشكور يعمل قبل ذلك علافـاً للبهـائم ولكـن الأشراف على الطلوقة عملاً آخر. قالوا انه يستلذ من القيام به. وانه كان يحصل على حلوان عن كل نطة.

وهكذا وجدت العزبة من يمنحها إسماً جديداً، وان كان الذين أطلقوا الاسم هذه المرة. أهالى النواحى المجاورة. قالوا: عزبه التور ثم عادوا وأكدوا أن الاسم هو: عزبة الطلوقة.

كان عبد الشكور يقف وراء البهائم، ومعه الفحل يحاول أن ينططه على بقرة جاء بها فلاح من عزبة قريبة. والفلاح الذى لا بد وان يكون مسكينا. يمسك بيمناه حبل البقرة. وقد طبق يسراه على جنيه ونصف. مبلولة بعرق يديه. أجرة النطة.

وبقدر ما كان الفحل قوياً. يشيل اللحم على جسمه. تكون البقرة عجفاء. جلد فوق عظم، تكاد أن تقع على

الأرض من شدة الضعف، وأبقار الفقراء، هياكل معكونة من العظام. حتى العضلات تكطون هزيلة لا تشيل لحماً. والفلاح الذى يسحب البقرة رجل ذو وجه عظمى وشاحب. لدرجة انه يبدو وكأنه يوشك أن يبدأ زمن البكاء.

يوقف الفلاح البقرة فى مكان منخفض وراء الدوار. ويحضر عبد الشكور الفحل. تور البقر الوحيد فى الناحية. عمله هو النط على أبقار العب التى حفت وجاءها أوان العشر. وإن كانت البقرة تبدو مثل الأعمى. فإن النور يعرف مكانه من كثرة ما فعل هذا. يقف من نفسه خلف البقرة فى مكان مرتفع معد خصيصًا لهذه العملية التى تتم يومياً.

يبدو الفحل متعبًا من طول الراحة. يقول عبد الشكور وهو يقوده الى مكان البقرة:" مرعى وصنعة لذيذة". يبربش الفحل بعينيه من الضوء. يتمطع وهو يمشى. لكى يحرك عضلات جسمه. ويستنشق الهواء ببطء. فالفحل لا يخرج من مربطه فى الدوار المعتم والمثقل بروائح إختمار العليق والبول والجلة، إلا عند حضور فلاح ببقرة تطلب الدكر.

ولأن البقرة التى فى انتظار الفحل لا يوجد فيها ما يغريه، يحاول الفحل أن يتحرك على هواه. فى الهواء الطلق. يشد عبد الشكور الفحل. يسحبه، حتى يصبح أنفه تحت ذيل البقرة بالضبط. يشمشم الفحل فى البقرة. وصاحبها يطبطب على ظهرها. فتؤلم يده عظامها. وعبد الشكور يدفع الفحل بالصوت واليدين الى البقرة التى أصبحت مستعدة لنطة التور. ورفعت ذيلها وبدأت تجتر.

الفلاح الذى يسند البقرة حتى لاتقع تحت الفحل. يبدو متعبًا مثل بقرته. ولكن عبد الشكور الذى يمسك بيده حبل الفحل ويضعه فى البقرة. بدفعة واحدة من الفحل يتم كل شئ. فى البداية. كان شكور يبدو سعيداً. بهذا الذى يتم أمامه. ثم يهلل ويصفق وينط فى الهواء قائلا:

بصرة. لكنه مع مرور الوقت بدأ يشعر بعذاب

مما يفعله

التور كل يوم. أن حركته لا تفارق خيالة أبداً. يعود الى بيته فتحيا وتستيقظ الصور المجنونة فى الليالى الطويلة.

حتى لا يصل الى حافة الجنون. حاول أن يغير الشغلانه عندما سئل عن السبب. قال انه تعبان من كثرة العمل، هل من المعقول أن يقول انه لم يكن يتحول اى شئ بداخله؟ وانه ميت مثل الحاج الميت تمامًا. البنات قلن له، فى صوت واحد. أن الطلوقة ولفت عليه. وان ربنا هدى التور على يديه. لم يعد يحزن ولا يقوم بأى مشاكل. والايراد زاد فى أيامه.

تمنى فى سره لو أن التور مات. جاءت له نقطة. ولكن ما جدوى موته. سيكون هناك تور آخر. وأبقار لا حصر لها. والبقرة تطلب لذه لا يعرف طعمها عبد الشكور. ثم أن كل الأبقار الصغيرة فى الناحية أولاد التور. وصاحب البقرة يبدو فرحان. وعبد الشكور يتفرج ويقبض،/ ويروح آحر النهار الى الكاتب. لكى يورد عرق التور.

يأخذ الكاتب، الذى يقول عنه الناس. الصريف. الفلوس من شكور. بعدها ويقول: البركة فيمن يعرف العد. يستدير وهو يخرج مفتاح الخزينة من عبه. يفتح به الخزينة. ويضع الأموال. كل ورقة فى مكانها والفضة فى درج خاص

بها. يقفل الخزينة ويسوجرها ويلف المفتاح فـى الـدوبارة المربوط بها ويضعه فى عبه.

يسأل:

- آدى عرق التور. عديناه وخزناه.

- طيب وعرق اللبى مشغل التور.

يبلع شكور ريقه مع السؤال ولكن الكاتب يقول:

- حيرت الخلايق يا بنى.

يقول له شكور، وهو لا يدرى كم مرة. جرى هـذا الكلام بينه وبين كاتب العزبة وصريفها من قبل:

- ليه يابا الصريف؟

يشوح الصريف بيده وكأن الأمر لم يعد يعنيه كثيرًا:

- تانى. الجسم البطال نجس.

يشرح له:

- طول بعرض وبطال. دا موضوع يا راجـل ولا فى الحواديت.

وعندما يخرج شكور، كل يوم، من مكتب الصريف. يحاول أن يهيمن على الكلام. الذى أصبح يضيق من كثرة سماعه له. لكن العيار الذى لا يصيب يدوش. والدوى على الودان امر من السحر.

وهكذا فعل الكلام فعله. وسرح فى نفس عبشكور حى دون أن يدرى. بدأ ينظر حوله. الأرض تحبل وتعشر من سن المحراث. الذى يشقها. توضع البذرة وراء البذرة، ويغمرها الماء. وتحبل الأرض. فى رحمها تنبت البذرة. تصبح الحبة عوداً. يشق قشرة الأرض، ويطلع. يشرب من قلب المحمل برذاذ الماء.

وتور شكور - هكذا يسميه الناس - إختصر المسافة بدلاً من وضع الناف على كتفيه، وتغمية عينيه. ويدور بدون نهاية فى الساقية، حتى تروى الأرض الشراقى بالماء. ها هو يعطى ماء الحياة لأبقار الحتة كلها. يساعده عبد الشكور فى اللحظة المقدسة. لدرجة أن الناس أصبحت تقول فى الناحية كلها: تور شكور.

وعندما يرغبون فى إغاظته، يختصرون الكلام. فتصبح الجملة: التور عبد الشكور. وعندما كان يصله

الكلام، كان عبد الشكور يقول: السلطان من هيبته، ينشتم فى غيبته.

ولكنه كان عندما يخلو إلى نفسه فى بيته الموحش، الذى يعيش فيه فردانى. يضرب كفاً بكف. التور عبشكور. يقول فى عقل باله، لأنه يخاف أن يستمع إليه احد من أهل العزبة. التور. يا ريت. هو أنا حصلت، أبقى زيه. واعز المنا.

يتوقف عن التفكير. الحيطان قادرة على أن تعرف ما يدور فى ذهنه. لكن عبد الشكور بدأ يضيق بالبيت والدار وبوقته وزمانه فى العزبة.

وفى النهارات البطيئة. يلف عبد الشكور ويدور فى العزبة ينام تحت شجرة الجميز العجوز. يضع قدميه فى الماء. تحت الطلمبة. يلعب بيديه فى تراب الأرض.

وفى الليل يتسكع الزمان وتموت الظلال. ونسوان العزبة، اللاتى يشعرن بالحنين للرجالة الخشنة الملمس. وبالرغبة فى شم رائحة عرقهم كل هذا يجعل عبد الشكور

يدرك أن الرجل رجل المرأة والمرأة إمرأة. هكذا خلق الله سبحانه وتعالى، كل خلقه جميعًا ما عداه هو.

يهج م البيت. يشعر بضيق. يهرش جيبه. لو أن الأشياء معدن. واليد طايلة. لطفش من العزبة. ليس امامه سوى الجرى من هنا. لا يفكر فى الاقتراب من تحويشة العمر. يشيلها من أجل يوم يحتاجها فيه. لا يعرف متى يحين هذا اليوم. ولا يدرك فى أى الأمور قد يصرفها. ولكنه لن يقترب منها إلا بالشديد القوى.

يمشى فى الحوارى. تتناهى إليه ما يتصورها اصوات التأوهات. وتبدو الوشوشات فى أذنيه عالية الصوت، همسات الليل الناعمة تهز الكون. والرجال الذين يجافيهم النوم، ولا يزور أجفانهم، رغم التعب والضنى، لا يجدون امامهم سوى هد الحيل مع نسائهم. حتى يناموا فورًا. ولا يصحون من النوم إلا بالطبل البلدى. يصبح جسم الواحد منهم، جزء من الحصيرة المتآكلة التى ينام عليها. مهدود الحيل. تؤلمه عظام قدميه ويديه ويرقص قلبه فى صدره. وكأنه يرقص رقصته الأخيرة يجرى هذا فى كل البيوت، إلا

بيت عبد الشكور. حوله فى كل البيوت. مهارفـه. هـزاز. مفاهدة. فرهدة إلا بيته هو.

تروح السكرة وتأتى الفكرة. يطق الكلام فى نـافوخ شكور. ماله وجنس النسوان" أى مصيبة جاء بها الى نفسـه. حتى فى شبابه الذى ولى. كان يشاهد العيال الذين يجتمعون مع البهائم ويتف عليهم. ماله الآن ووجـع القلـب ودوشـة الدماغ.

كانت ليلة. قرر بعدها. أن يغير حالة. لعله يطلع من حكاية النسوان من نخاشيش مخه التى زرعتها حكاية التـور فيه زرع بصل.

ـ ١٣ ـ

إلى أن كانت ليلة. القمر قمر اربعتاشر. خرج مـن البيت فى طريقه الى المولد. عادة عمره ما قطعهـا وقطـع العادة يجلب الشؤم. ندر لا بد وأن يوفى به.شئ الله يا أهـل الله. ووقف الندر يجفف ينابيع رزق الله. الذى يرشـه علـى الأرض والعباد والحيوانات والحشرات والنباتات قبل بكـة

الشمس. وقبل أن يخرج نور النهار من بطن ضملة الليل الغويطة.

أخذ معه بعض الفلوس ومشى، فشمى معه القمر فى سماء الله العالية، مترجرجًا متلألأ. سار وراء الأصوات الليلية. شاهد نوراً من بلد قريب. فذهب إليه. كان المولد منصوباً. جاء الدراويش والغجر وحاملوا القرآن الكريمفى صدورهم والنور الذى يفرض المكان يخرج من ماكينات تجرها الحمير التعبانة الهفتانة.

كان مولد سيدى أبو الرجال، وعبد الشكور لا يروح المولد إلا فى الليلة الكبيرة. وهى دائماً وأبداً ليلة جمعة. يذهب عبد الشكور الى المولد. ومثله يروح الى هناك، كل أولاد الناحية. وهؤلاء. ينصرفون وقت أن تخلو جيوبهم من الأموال القليلة التى كانت فيها. أما شيوخ الطريقة وأبناء الطرق. والذين أخذوا العهد فلا يعودون إلا بعد صلاة الجمعة.

عبد الشكور لم يرجع هذه السنة مع الذين رجعوا تحت طل الفجرية. لا الذين أكلوا مشوار القيالة على رءوسهم.

فى المولد أسلم نفسه لعالم من الألـوان الملعلطـة. وفعل مثلما يفعل الآخرون. كان قد وشوش الدكر. تكلم عما بنفسه. الدكر يبحث عن أنثاه. ها هو الوليـف ولكـن أيـن الوليفة. حضنهيطلب الحضـن الطـرى. خاصـة بعـد أن خاصمه النوم وهرب منه المنام.

والذين عادوا الى الغربة قبل عبشكور، قـالوا انـه سحر للتور وعنمل له عملاً. والبعض منهم أكد أن عبشكور بقى فى المولد حتى يصل الجمعة لأول مرة. وناظر العزبـة غضب. وقال انه سيصلى الجمعة جماعة هناك. التور مـن سينططه على الأبقار. يوم الجمعة يحضر ولكن له الجميـع، ولا يستطيع أحد غير عبد الشكور أن يقترب من التور.

ـ ١٤ ـ

ولكن ما جرى لعبد الشكور فى المولد حكاية أخرى. بعد أن لف وداخ. وقف عند غرزة لكى يشرب شايـاً. شـاى سوقى فى لون دم الغلابة. الذين يملأون العزبة. شئ يسد به جوعه. ويملأ بطنه. بدلاً من الفراغ الذى بدأ يشعر به.

قبل أن يقترب من النصبة. كان يفكر فى حاله. فـى الناس التى أكلت وجهه. وشعر شاربه الذى بدأ فى التساقط. لا يعرف كيف سيمشى بعد اليوم فى العزبة. التى بـدت لـه الآن فقط. كم هى محرومة من ونس النسـاء، مـن شـجن الفتيات الجميلات.

وقف أمامها. شرب شادية. ودفع الذى طلبته منه ثمناً للشاى. كان هناك مبالغة فى الثمن. ولكنه مولد. وفى الموالد كل شئ جائز حتى السرقة. قبل أن يخرج فلوسه. عد المبلغ المطلوب منه. عد على اصابعه. طلع فلوسه باحتراس. يسمع دائماً أن كل من يعيشون فى البنادر لا عمل لهم سوى سرقة الكحل من العين. خاصة اعين أهل الريف.

بعد أن دفع ما طلبته منه. طلبت عيناه منه المال مرة أخرى. وعندما لم يفهم نظراتها. قالت لـه بـأحرف لينـة وممطوطة. تمنى لو أنه نام عليها:

- البقشيش.

تمنى لو كانت عنده الجرأة لكى يطلب منها أن تنطق بالكلمة مرة اخرى. صوتها أسكره. والنشوة التى سرت فـى

عروقه بدت له لذيذة. بصورة لم يتذوقها من قبل. بدأ كالتور أمامها، لا يفارق خياله.

قالت له:

- ارمى بياضك.

نفس الكلمة كان قد سمعها من غجرية تمر على العزبة ولكن الكلام على السنة نسوان البنادر يصبح له طعمًا آخر. أحلى من الشهد. وألذ من لحظة وصول التور إلى البقرة. حيث وقت التعشر ورمى البذرة فى الأرض الشراقى.

وقف بالقرب منها. طالت وقفته. سأل عن اسمها، من بعيد لبعيد. قالوا له: محظية. لحظة سماعه الاسم. شعر أن الحمول والهموم قد انشالت عن كتفيه. كان لمحظية وميض عينين يشع منهما. قال لنفسه. بعد أن شاهد بياضها عن قرب. انه يمكنه رؤية جسدها حتى فى ظلام الليالى.

شم رائحتها، اللواندة أخذت أنفه معها وطارت الى البعيد. كانت تعمل كل ما يتصوره وما لا يتصوره أيضاً. تضرب الودع، تقرأ المستخبى. تشوف البخت. تقف وراء النصبة. نصبة الشاى. ترص كراسى المعسل. تحضر الماء

وما أكثر العطاش. رأى مشيتها. راقصة عذبة. لا ينقصها سوى الدربكة والصاجات وتصفيق المهاويش. ويغرزون الجنيهات ام مادنه وسط نهديها.

تحركت فرقص الهواء طربًا من حولها. وقفت فلا مس شعر رأسها الذى يكب لونا أحمر. سماء الله السابعة ذات نفسها. حته نتفه نتابه. قال شكور لنفسه وهو يتسكع فى المولد " اما البقرة " قالها ولعابه يسيل. ها هى البقرة. ولكنه ترك التور فى العزبة. فمن ينط له عليها؟ مهرة. رهوان. سبحان من صور.

لف فى المولد، وكنه عاد إليها. نقر فى حلقة ذكر تطوع فى الهواء. وقال مع من حوله" الله حى.. الله حى". أخذته الجلالة، وبدأو يوشوشون له فى أذنيه " وحد الله، وحد الله، ولكنه لم يهدأ باله. ولم يصف خاطره. إلا عندما عادت خيوط النظرات تشده إليها من جديد.

بعد الذكر، جاء دور اللعب. جرب حظه. أمسك البندقية ونشن وضرب فى المليان. كسب وأخذ مكسبه من نتاية أخرى. صوتها عبارة عن كلمات ممطوطة. ولكنه لم يعد قادراً على أن يرى صوى محظيه. لم يفهم معنى

اسمها. ولكنه أعجبه لحد الجنون. دفع العربة الحديد وهى محملة بأثقال الحديد، وأوصلها إلى آخر المدى. وفرقعت البمبة. صفق له الناس. وصدره يكاد أن ينفجر من شدة ضربات القلب عليه.قال فى نفسه: متى يفقع بمبة محظيه ويطرطش دمها. ويطش تقليتها. وهلى مازالت ابنة الموالد والليالى الملاح لديها نقطة دم واحدة؟ نقبك على شونة يا شكور.

عندما عاد إليها مطت شفتيها. أصبح الرجل الغريب والذى لا تعرف حتى اسمه مثل اللزقة الملزوقة بالغراء. كان قد تمسمر فى النصبة التى تصنع عليها الشاى طلب شاياً. لا تدرى للمرة الكم. شربه وتكوع.

اكتشفت أن لها أهلاً. معها أناس آخرين. هناك من تقوله له أباها. ومن تناديها أمها. حاول أن يعرف بلدها من طريقة نطقها. ولكن احرف الكلمات كانت ترقص فى فمها. وتلعب فوق لسانها. وتتقصع بين اسنانها البيضاء. وكانت هى وأمها وأبوها يوزعون الأدوار فيما بينهم.

بعد أن شرب الشفطة الأخيرة من كوب الشاى وبدأ يلحس تفل الشاى بلسانه. قالت وهى تأخذ منه الكوب الفارغ:

- زق عجلك.

إستفهم منها. فقالت:

- طريقك زراعى يا بلطز

قال أنه لن يتحرك من مكانه ولا بالطيل البلدى. ضحكت وقالت له وهى تدفعه فى صدره:

أشارت للنصبة والبراد والأكواب. وخلق الله المترصصين حولها. والأرزاق التى وزعها الخلاق على عباده. أمامها عدة الشغل. وتحتها المونة. وهذه هى الليلة الكبيرة. رزقها لا يتكرر سوى فى ليلة كبيرة أخرى. لا أحد يعرف متى تأتى. ولا أين. قال انه لن يتزحزح من مطرحه ولا بالبوليس ذات نفسه. الحكيم وصف لعلته الشاى. شاى من يديها. كوب وراء كوب.

قالت له:

- بطنك بحر.

استهواه الحكى معها:

- بحر مليان قراميط، وفيه فلوكة راكبها اثنين مغرمين صبابة.

يعرف شكور اللحظة التى وقعت عيناه فيها. ولكن كل المنجمين لا يمكن أن يعرفوا نهاية حكايته معها. حتى لو عاد إلى وشوشة الودع وفتح المندل. وقراءة الكف. سيخافون من رموش عينيها وسمار بشرتها وجمال شفتيها.

على الرأسى منديل فيه ترتر. وفى الأذنين حلقين كبيرين مخرطة وعلى الصدر عقد مدندش. وفى القدمين خلخالين من الفضة. تستحضر محظية فى ذاكرتها أياماً متوهجة. وليال براقة ملعلطة لموالد فى كل انحاء مصر.

طولها يبدو مثل عود السرو. نتاية من أيام الرخاء. فى جسدها رحابة الأرض، وعطش الشراقى. رحمها هو بطن الأرض. فى حاجة إلى سن محراث حتى يقلبها. ثم يبدأ فى رمى بذوره فيها. جسدها هائل. متسع كأنه الدنيا. التى مشى فيها طول عمره. ومطلوب له سنين حتى يجيب آخرها. جمرات النار. صوت الريح. رعد السماء. غضب الأراض. هيجان الثيران.

فى آخر السهرة. قالت له بالمختصر المفيد:

- قول وخلصنا

قال:

- هيمان

قالت بحسم:

- يبقى تتجوزنى الليلة.

تمحك وهرش فى عرق الهيافة:

- المأذون نلاقيه فين؟!

كانت الكلمات تقف على طرف لسانها:

- فى المولد مأذون.

اكتشف وهو يستمع إليها انه مغرم صبابة، ولهان. لمست يده يدها خلسة. شعر أن شقوق أصابعه قد استراحت لأنامل أصابعها النواعم.

طلب وقتاً حتى يشاور نفسه. يأخذ الأمر وقته معه. يقلبه فى دماغه. رفضت. إما أن يكتب عليها الليلة. أو أن يوريها عرض أكتافه. الليلة هى الليلة الكبيرة. فى الفجرية

يرحلون. بلاد الله. خلق الله. بحثاً عن مولد آخر. فى بلاد بعيدة. وهى لا تعرف متى تعود إلى هنا من جديد.

غنت أمها:

- اكتب كتابى وطاوعنى.

واوعى يا قاضى تلاوعنى.

حاول أن يحدثها عن أهله. قالت ما دخلهم. سألهعا عن أهلها. أشارت لهم. قالت انه غاوى كلام الجرئ صياد. اما الليلة واما لا.

سألها عن الفرح. الشبكة وقراءة الفاتحة. والمهر وليلة الحنة وليلة الدخلة ويوم الصباحية. وزقة العروسة والعريس. قالت أن أباها السييط وأمها الغازية.

شرحت له:

- دى حلاوة الدخلة تنقسم على جوز.

سألته وهو متدهول على نفسه:

- مش أحسن من قسمتها على كل من يقدر يقول الله.

قالت أمها لزبون آخر الليل، وهى تحاسبه:

- اشرب قهوتك وسمعنا خطوتك ورانا جواز يا بلدينا.

وكانت البنت قد لفت دماغ الجدع، وجابته تحت باطها شرب شايه، لم يعد قادراً على حساب. كم شاياً شربه. وقبل أن يمضى. قالت فى نفسها. انه عامل مثل لوح العجين. وهو يمشى. سمعها. كانت تغنى لنفسها:

- ياسم هزاز.

أنا قلبى قزاز.

لو ملت عليه

راح يتفرتك.

أخذ لفته الثالثة أو الرابعة فى المولد. حاول أن يهرب منها. أن يبتعد عنها. ولكنه عاد إليها. دون ارادة منه. حام حولها. وما أن رأته حتى قالت للهواء:

- خلى بالك لحسن تتكعبل فى النملة.

لم يرد عليها. قال في نفسه. أن بنت المولد تلقح عليه. و احدة رفعت منذ زمان برقع الحياء. عيارها فالت. شعر أنها نتاية. بحرها غويط. ليس له قرار. ومع هذا أحس انه مربوط لها بحبال لا يستطيع رؤيتها. ولا يمكنه أن يفكها.

سأل عن أنواع المشاريب الأخرى عندهم. وطلب من كل صنف كوب. فهمت هدفه. كادت أن تسأله عن غرضه وهو لقط السؤال من فوق ملامح وجهها.

قال لها:

- عايزك

رفست الأرض بقدميها:

- مش كل الطير اللى يتاكل لحمه.

خبط صدره:

- فهمتينى غلط يا بت الناس

بلع ريقه بصعوبة

- عايزك فى الحلال.

شاورت على مقام سيدى ابـو الرجـال، صـاحب المولد:

- على سنة االله ورسوله.

ردد وراءها:

- المأذون هوه اللى حا يعقد لينا. وحا أجيب اثنـين شهود.

قالت فى عقل بالها، نفسى بالى يرتاح، وقلبى يهـدأ، الرمح فى السكك هد حيلها. والطرق أكلت منها راقات. طول عمرها، يقولون عنها، رد سكك. مرد والـد. رد أفـراح. و ليالى ملامح. وهى الآن تريد أن تحط على الأرض.

كان ابوها مترددًا. البنت تشيل الشغل على أكتافهـا. شاطرة وعفية. ولكن أمها حسمت الأمر:

- الجواز للبنت سترة. المرة من غير راجـل. زى البهيمة من غير صاحب.

سمعها شكور فتذكر الطلوقة فـى العزبـة. وأبقـار الناس الغلابة. قال والد المحروسة، أنه لا يعتـرض علـى الجواز. ولكن من يعرف العريس؟ استحضرت أمها الأمثال

التى تحفظها من شبابها " ضل راجل ولا ضل حيطة. رد عليها والد المحروسة: قعاد الخزانة ولا الجوازة الندامة".

شخطت فيه. قالت انه بدلاً من وصله الردح. عليه أن يخطف رجله ويعرف أصل العريس وفصله. قال انه كان يتمنى لو أنها تزوجت واحداً منهم. عرض على شكور أن يعمل معهم. وقبل أن يفكر شكور فى العرض. كانت محظية قد حسمت الأمر. ذلك أنها كانت تريد أن ترسى على بر.

ـ ١٥ ـ

كان وداع أهلها لها مؤثراً. نبتت فى المآقى الحمراء من الشهر. دموع لا يعرف عبد الشكور من اين جاءت. اكتشف أن هؤلاء الذين تصور انه لا بد وان يعد أصابعه بعد السلام عليهم. أن فى صدورهم قلوباً تنبض.

تحدثوا عن شقيقاتها اللاتى تزوجن هكذا، واحدة من قبلى. وها هى محظية مكتوب عليها الاستقرار فى بحرى. وثالثة فى خط بحر الكنال. ورابعة فى الصحارى البعيدة. قالوا لها أن الظفر لا يمكنه الخروج من اللحم حتى لو اراد. وان الدم لا يمكن أن يصبح ماء.

حلفاها بالغالى والعزيز، ورحمة من ماتوا، ومقام صاحب المولد، أن تحضر فى المولد الجاى. ويا هلترا من يعيش. محظية أكدلت لهم، أنها ستعد الأيام والليالى حتى يلتقون. قال لها أبوها، أن هلت عليها السنة الجاية. وهى فردانى لا تحضر لهم. لا بد وأن تكون معشره. بطنها منفوخ وعلى يديها بكريها الذى ترضعه.

قدم لها والدها، خريطة سريعة بالموالد التى سيقضون السنة فيها. حتى أن زعلت - لاقدر الله - تقابلهم فى أى مولد من هذه الموالد. قال عبد الشكور لنفسه. أن والدها يبدو وكأنه صاحب مصر.

سحبها وراءه من المولد الى العزبة. ركبا معدية وعربية نص نقل. كلمها عن اللقمة والهدمة. والسقف الذى سيسترها، والجدران الأربعة التى ستحميها من برد الليل وحر النهار، ومطر الشتاء، وصهد الصيف. وهى طبعها حامى. معجونة من ماء العفاريت. وعليها أن تستعد من الآن للاستقرار.

قالت لنفسها، ماله يتكلم عن العلف والمونة. وينسى الليفة والصابونة. أنها ليست بقرة تبحث عن التبن والعلف

والعليق. لماذا لم يتحدث عن الحموم والسرير وقميص النوم. قالت فى عقل بالها. ربما شال الكلام الحلو للقعدة الرايقة، وهما الآن يرمحان فى السكك وكل وقت له ادان.

فى الطريق، وهما يسيران كعابى، نظر إلى شعرها. نقل نظرة الى الغيطان من حوله. خصلات هنا، وأخرى هناك من الخضرة. اما شعر محظية. فيبدو قطعة نساها الليل ورحل. وقد اشتعلت فيها النيران.

وهى تسير إلى جانبه. فكر انه لن يستطيع تحمل كل هذه السعادة التى تنتظره مع محظية. حولهما كان الريف، البراح والسماء المرفوعة. كأن يداً ترفعها عالياً وتمسك بها. كانوا يقولون امامها فى الموالد:" أبو خيمة زرقا". وكانت تبحث كثيراً عن هذه الخيمة. فتكتشف أنها تحجبها عنها ستائر العمارات العالية وتتوه الرؤيا تحت الغبار والضباب وصخب الموالد.

ترى أشركة من الزرقة التى تفصلها عنها أتربة وغبار وأدخنة، وطائرات الأطفال الورقية. ولكن هنا وفى الطريق الى العزبة، كانت الخيمة الحقيقية والهدوء الذى لا نهاية له أبداً.

حقول راعشة، متماوجه. صعدت رائحة الهواء المبلل بالماء والأرض المروية حديثاً، الى صدرها، توقفت روائح جديدة عليها. فى السكة من المولد الى العزبة. قالت محظية لعبد الشكور: قلبى مخدتك، وسدرى مرتبتك. ورموش عينيه سترك و غطاك من النهاردة. لم يرد عليها، نشف ريقه وانهد حيله، وشكشكت الدموع حبابى عينيه فسكت.

قرب العزبة. سمعت صوت خطواته من جزمته الميرى الكبيرة على الأرض. فزعت من منظر السحالى وهى تجرى. علت فى الجو غيمة متحركة من الذباب، وطارت العصافير من فوق اوراق الشجر. وحامت حدأة فى سماء الله العالية. مد عبد الشكور يمناه، وبرم الفردة اليمنى من شاربه. وفرد يسراه. ولف بها شعر شاربه على شكل نصف دائرة. ملس على خده. خيل إليه أن الأمور لم تكن حسنة مثلما هى الآن.

كانت تحمل اشياءها القليلة. قمصان النوم الشفتشى، أحمر الشفايف. قزازه اللواندا. الشبشب دم الغزال. هوسه

منظر الفساتين ذات الألوان الصارخة. والمرآة على شكل قلب. مرود الكحل.

غنت لنفسها:

- البنت سن تلاتاشر.

والوش قمر اربعتاشر.

والجسم ما شاء الله راخر.

نظرت إلى العزبة. جاشت نفسها بلحظة فرح. تزوجت وحيدة وجدت نفسها تحاول من جديد أن تغنى:

- هوه ضربنى بالدبوس.

وأنا ضربته بالدبوس.

طول الليل. يحضن ويدوس.

يا وعدى.

وقف عبد الشكور فى مكانه. نظر إليها. بعينى رجل آخر. زجرها وقف. الناس يشاهدونه من بعيد. أوشك أن يضربها.

قالت له:

- هيه كده من أولها.

رد عليها، وهو يخشى أن تتركه وتمشى:

- اللى أوله شرط آخره نور.

ضحكت:

- تانى، حفضناها. قول حاجة جديدة.

تحركت قبله نحو العزبة:

- ما تبقاش تقف.

زعق فيها.

- نعم يا بت انت.

ساعة أن وصل شكور للعزبة، ووراءه النتاية الغرباوية التى كانت تبحلق فى الناس و الأشياء بعينين مفنجلتين. قال الرجال:

- شكور دخل الجنة برجليه. ما بدهاش كلام.

وقلبوا فلبى حديثهم القديم. والجديد.

ساعة ما وصل شكور للعزبة، تمشى وراءه المرأة الغرباوية. قالوا:

- غرباوى اتلم على غرباوية. يبقوا حايخلفوا شيخ منسر.

وأهل العزبة قالوا أن شكور من حقه الآن أن يلون بيته ويرسم على جدرانه، وان يركب باباً قوياً على داره. حتى يحميه من الجدعان. الذى سيحاولون كسر الباب المصنوع من الورق. والذى كان يقف على شكور قبل حضور الغرباوية.

عندما شاهد عرابى الشايب المرأة الغرباوية. اكتشف- ولأول مرة - انه من الصعب العثور على كلمات على قد غصنها وقوامها. كلمات يمكنه أن يشكل منها حكايات تفصل عليها مثل التوب.

قال عرابى الشايب: أن النسوان صنفان، نوع بيتى يولف، يريد أن يعيش. وصنف براوى من سكة لسكة. من عش لعش.. من راجل لراجل. وهذه الغرباوية التى جاء عبد الشكور يشنطها فى يديه. مره براوية.

عرابى الشايب، قال: أن الغرباوية التى أحضرها شكور ستكون أغرب حكاياته. بعد حكاية الحاج الميت عندما كمان ولداً فلاتيًا. سألوه عن الحكايات قال أن الناس مداریاها الحيكان وربنا أمر بالستر.

تمنى لو أن الحاج فؤاد الميت، كان ما يزال على قيد الحياة، ربما حركت الغرباوى اللينة مواته الداخلى. وأخرجت الأولاد المتجمدون فى ظهره، منذ سنوات. و كانوا فى انتظار نتاية لا تتكر كثيرًا. واحدة فقط فى الدنيا كلها، قادرة على فعل هذا. أنها النتاية التى حضرت مع شكور من المولد.

قال شكور للناس أنها حلاله. عقد عليها على سنة الله ورسوله. قبل أن ينقض المولد. وعندما يسافر الى البندر سيحضر قسيمة الجواز. التى لا بد من مرور بعض الأيام حتى تكون جاهزة.

- هوه فيه مأذون فى المولد؟

رد عليهم:

- امال، ومطر وحلاق صحة وحكيم.

اختلفوا كثيرًا. ولكنهم اتفقوا على أنها امرأة بحق وحقيق. نسوانهم غفر. وناظر العزبة قال أن الزواج من الأغراب يخلف عيالاً عفية.

وكان اهل العزبة ما إن شاهدوا المرأة التى أحضرها شكور، حتى بربشت أعينهم الموجوعة من الدهشة وعدم التصديق. قالوا له أن البنت الكبيرة للحاج الميت سألت عنه فى غيابه. وقالوا لها أن شكور هج من العزبة ولم يعد. غوته جنيه بحر النيل. نادته النداهة.

وشكور تمنى له أنه أخذ زوجته الى الدوار. لكى ترى التور قبل أن يحكى لها عنه. ويقول له عنها. فكر أن يفعل هذا. ولكنه خاف من السنة الناس الطويلة. قال انه من الأفضل أن يؤجل هذا الأمر الى يوم آخر. أن كان لا بد من حدوثه.

فى داخل بيته شعرت الغرباوية أن روايح البيت، تكاد أن تغلق بشواش شعرها. الذى احتار شكور فى لونه الحقيقى. أسود أم أصفر أم أحمر.

ضافت بالبيت. كادت أن تجرى لولا أن شكور منعها. قال لها أن الغيطان التى تبدو لها من بعيد، لا يوجد فيها سوى الزرع. والأشجار، والحيوانات. وان الغيطان مزروعة أيضاً بالناس، الذين لا عمل لهم سوى حكايات الناس.

شعرت ساعتها أن هذا الهواء، وذلك الصمت، هما اللذان سيجعلانها تحاول ذات يوم، الهروب من العزبة، نظرت خارج البيت، شمس مشوبة بالخضرة. وسماء شفافه هكذا بدت لها العزبة.

وفى العزبة لم يعد لهم كلام سوى عن شكور الذى عاد بالغرباوية. السؤابل واحد، ولكن الاجابات تختلف من مرة إلى أخرى. حسب مزاج شكور وصاحب السؤال. سألوه عن الفرح وليلة الدخلة والسبيط والغازية والعوالم. قالوا فى عبهم، أن الغرباوية تبان غزية ورقاصة وعالمة.

قال عبد الشكور انه اقام ليلة الحنة والزفة والفرح فى بلدها. سألوها عن بلدها. فقال: وهل عقله دفتر حتى يفتكر كل صغيرة وكبيرة؟

بعد أن تركوا شكور قالوا: انه فرح مثل الميتم. ولكن العقلاء منهم قرروا أن يكفوا على الخبر ماجور:

- العروسة للعريس. والجرى للمتاعيس.

عاد شكور إلى البيت فى أول الليل، دخل بهدوء. وكانت محظية تغنى بشويش. ولكن شكور سمعها بوضوح:

- قطعنى حتت... أنا ملك ايديك

وسهر الليالى... حكى لى عليك.

قال لها، انه كان يحلم أن يرى من نواحيها شبورة حنية، فغنت له على لافور، وهى ترقص رقصة كادت أن تخلع عقله من جذوره:

- بلد حبيبى جنينه \

يجرى فيها بحر النيل

والنخل يرس ع الشطين

بلح زغاليل

كان شكور وهو يرى رقصها المهول ويستمع الى غنائها الذى يذيب حتى الصخور. يفكر كيف يبلغ أمر زواجه

المفاجئ للستات. وهل تذهب معه محظية الـى السـراية، أم يروح الى الشكمة لوحده؟

ولأنه كان يرى ما لا عين رأت، ويستمع الى ما لن تستمع إليه اذن من قبل قرر أن يؤجل الأمر كله الى ما بعد.

قال لنفسه:

- الصباح رباح.

ـ ١٦ ـ

أصبحنا بمفردهما لأول مـرة منـذ أن التقيـا ليلـة الأمس، بدا له كما لو أن ما جرى كان يحدث لشخص آخـر سواه. أخذها من يدها. لكى يريها البيت:

- بت يا محظية

وقبل أن ترى البيت. شدت يدها من يده:

- انا ما اسميش محظيه

صاح فيها

- يا نهارك أسود من شعر راسك.

قالت:

- اسمى أسرار

حاول أن يتذوق دهشته:

- محظية دا اسم الكتوبة. اسرار اسمى انا مالى ومال اللى ف ورقات الحكومة.

لكنه لم يستطع أن يخلع اسم محظية من نافوخه. ركب الاسم على الكسم و انتهى الأمر. وهى من ناحيتها أفهمته أنها لن ترد عليه، ما لم تسمع منه كلمة اسرار.

أسرار الليل: ضحك وفرفشه. ولكنها وقت الفجر الموحش، وبعد أن تكون قج وصلت معه الى ما بعد المدى، تخنقها الدموع.

محظية: تتثاءب، تصحو لتنام مرة أخرى. تتحسس جسدها بيديها، بعد الصحو من النوم. تغنى اغانى غجرية وقت الأصيل.

محظية: تغير فستانًا كل ساعة. لا تترك مرآتها لحكظة واحدة. تبحلق فى وجهها دون ملل على امتداد الليل والنهار. تنتف شعرها. تزوق وجهها. تحك كعب قدميها

بالطوب الأحمر حتى يكاد أن يبك منه الدم. ترش على صدرها وشعرها مسك الغزال.

فى الخارج، انصرف الناس وهم يقولون، فرح يتامى عبد الشكور غبى. تعلم من التور الغباء. لم يذهب الى المزين، ولم يتحمم، ولم تعرف يداه وقدماه نقش الحنة. ولم يمش فى الزفة. ولم يحصل على النقوط.

بدت لشكور القاعة الوحيدة فى بيته، عندما وقفت أسرار فى منتصفها، وكأنها مبنية من قوالب السكر، أما المونة فهى من عسل النحل المصفى. و الجدران مدهونة بالشهد.

كان يبحث عن عين ثالثة، وعين رابعة، وعين خامسة حتى يتمكن من رؤيتها بكل هذه الأعين. من قبل كان ينظر الى العزبة فيخيل إليه أنها بيوت من الطين يخرج منها أناس من الطين، وانه يعيد عنهم. أما الأن، فإن أعماقه مليئة بالرؤى المدهشة، ولكنه يؤجل كل ما فى نفسه الى ما بعد يذوق شعادته.

يوم الصباحية. يوم الحكاوى عن الليلة المترعة بالوصال والعشق. تسلل عبد الشكور من شق بين جدران البيت والباب. انحدر من الحارة نحو الترعة، جاءته نسمة هواء صباحية بكر. لم تلمس انف إنسان بعد. كاد أن يضرب الهواء ويطارد هذه النسمة حتى تعود الى الأفق الذى جاءت منه.

نظر إلى الغيطان شعر بضيق لم يلحظ أن الغيطان تزداد اتساعاً فى هذا الوقت. لم يستطع أن يرى الرجال يحملون الأشجار فى قلوبهم. وان خضرة الحقول تطل من اعينهم. رفع عينيه الى الفضاء، رأى فى الأفق زرقه السماء المشتعلة بلون أحمر ناحية الشرق. الهدوء الرمادى الذى يصل إلى منتهاه فى هذا الوقت.

ليلة لا يعرف كيف مرت. لم يفارق خياله الثور العض والبقرات الهزيلات. ويده التى تمتد فى الوقت المناسب. تتوسط الأمور. تجعل هذا فى مقابل ذاك. يلمس اللحم الأحمر. اللحم الأكثر احمراراً. يندفع الثور الى الأمام. يغوص اللحم الدافئ فى اللحم الملتهب. يتسرب ماء الحياة دون أن يراه. وإن كان يدرك هذه اللحظة من رعشة

الأجساد. الجسد الراكب والجسد المركوب. يلفه شوق حار الى الرغبة فى الفعل.

يمسك شكور برأسه المتعب بعنف. يخشى أن يطير فى الهواء. يفقد الإحساس بعضوه مثل قطعة الشفته.

يطير رأسه. ويتدحرج نحو أسرار. يتوسل إليها أن يبقى السر سراً وأن يظل المستور مستوراً. جاء الصباح عليهما. زرقه ملساء ناعمة مثل شعر فتاة عذراء، وان كان شكور لم يشعر بالصباح أبداً. أحضرت له أسرار الطست و الماء الساخن والصابونة.

قالت لنفسها: على ايه يا حسرة.

لا كتب الجواب، ولا على الخطاب، لا المدفع مدفع، ولا العمود عامود. والطابيه زى ماهيه. ينكف محضوض. أول مرة ينكشف على حريم. فكرت ربما كتب له ولاد الحرام عملاً. الأسياد ربطوه، وكل مربوط ينفك. بس تمسك هيه نفسها. بكت. قالت: عين وصابتنى. لكن رب العرش لزمن ينجينى.

وقفت وراء الفرن. بنت جن مصور. كيف عرفت كل ما فى البيت من نفسها. دون أن تسأله. أو أن يقول لها من نفسه عن أى شئ فى البيت. فى يدها كوز مملوء الماء الساخن، والبخار المتصاعد منه، جعل وجهها قطعة من الحمار والحلاوة.

نحى شكور يدها. وضع اللاسة الشاهى اللامعة على كتفيه. ركب مداسه. وقبل أن يخرج قال لها انه سيأخذ غطساً فى الترعة. وعندما اصبح وجهها علامة استفهام. قال لها:

- سلو بلدنا.

فى الحارة قالوا:

- مبروك يا عريس.

رد عليهم:

- عقبال البكارى

زعقوا عندما عدى عليهم

- صباحية مباركة

لم يرد عليهم عندما سألوه:

- سبع واللا ضبع؟

رمى نفسه فى الترعة، قال الخبثاء من رجال العزبة، انه يطش ناره فى مياه الترعة الباردة. روت النساء أن تقليته لم يتم طشها فى زيت النتاية التى اشتراها من مولد البنادر التى كان فيها. وعندما لا تبرد المرأة من نار زوجها المصهرجة. يكون فى الأمر خطأ

حاول أن يسبح فى الترعة. اكتشف أنها صغيرة. بدا لمن يراه من بعيد انه يتطهر. ثم يبدأ فى الوضوء. كان يقول لنفسه: انه لا بد من البحث عن بئر الآبار فى الناحية كلها، ليدفن فيه سرة ويردم عليه من الآن والى الأبد.

أن السر أن انقسم الى اثنين لا يصبح سراً. وأسرار هى الطرف الآخر الوحيد فى معرفة سره الذى لن يصدقه أحد. وهل يملك فى عيون الآخرين سوى رجولته!

همست أسرار لنفسها. وهى تخلع القميص الشفتشى المصنوع من قماش احمر لميع. وتقف فى الطست:

- الصيت ولا الغنى

أصبح يخاف سكون الليل، يخشى صمته. يكره هدوءه، يفزع من ظلامه. يهرب من رحابه القاتمة الضيقة المرشوشة بضوء شمعة تتراقص.

قالت له: أنها لا تحب الجماع سوى تحت ضوء شمعة شاحبة. النور المبهر يتعب عينيها. وفى الظلام لا ترى شيئًا وضوء الشموع المتراقص يهدهد أعصابها. ويفيض على الجماع لذة.

ما أن يشاهد ضوء شمعة تتراقص ويرى لعبه الضوء الباهت والظلال على الجدران والسقف حتى يصاب بحالة من الفزع. يبدأ فزعه فى الوقت الذى يشاهد فيه أمواج الغروب الرمادية. تأتى نوبات ضيق التنفس تبحث فتحتا انفه عن نسمه هواء واحدة فلا تجدها.

تبدو أسرار فى البيت عاشقة تغزل مواعيدها. قلبها طائر فى الهواء. وعندما تسهم، و تروح بعيداً. يحتار فى أمرها. يضرب أخماساً فى أسداس. ولكنه لا يعرف أبداً، أنها إنما تحاول الإنصات لصهيل الخيول البعيدة.

جاء لنفسه بوجع القلب ودوشة الدماغ. انتهى روقان البال، ولن يستطيع بعد الآن رمى الحمول وراء الكتفين. لن ينتهى من هذا الواغش أبداً. استدار بعيداً عنها. قال انه تعبان. سألته عن وجيعته، فراح يحكى كل ما كان يسمعه من الذين تسكن أجسادهم الأمراض كلها.

الريق ناشق والعين مزغللـه، والقلب يطنطف والأطراف نملت، وعرقه مرقه، والدم وقف فى مكانه أما هى، فقد طبطبت عليه، وتكلمت. طحنت اسنانها أحرف الكلمات قبل أن تنطق بها.

ربنا يعافيك يا سبعى.

من يوم أن جاءت الى العزبة ما نادته إلا بكلمات من هذا النوع، مرة سبعها وثانية جملها وثالثة: ذئبها ورابعة: فرسها أو ضبعها. ابتعدت عنه، سحبت جسمها إلى ركن من اركان الغرفة. غطت عريها، لمت نفسها. فكرت: أى وكسة أوقعت نفسها فيها. ودعت الحياة التى كانت تحبها. عندما كانت تسابق الريح. كل يوم فى بلد. حبست نفسها مع هذا الرجل. خشبه ضخم. طول بعرض. شنبات. باب مزوق. ومن ورائه كل شئ مهدم مثل سرايات زمان.

من الخارج رخام، ومن الداخل سخام. مثل صحابات عزب اليومين دولت. وسكان السرايات لم يبق لهم سوى نش الذباب بالمنشات، وبيوتهم المهدمة تطل من ورائهم.

دغدغ منظر عواطفها، واستثارها، شعرت بلذة. تنمل جسدها وهى تشاهد حركة شاربه عند الحديث. ولكنها اكتشفت عن قرب أن الشارب مصاصة قصب. قش أرز. لم يشكو لها عندما اقتربت منه.

مرت أيام بعد الدخلة. خرجت أسرار من البيت. حرج عليها شكور أن تكلم نسوان العزبة. أما رجالتها فلا تنظر ناحيتهم. وان كانوا جميعًا. النسوان قبل الرجالة قد وقفوا ليشاهدونها.

وهى، وعلى الرغم من أن عينيها تندب فيهما رصاصة. فقد مطت وبحلقت فى الأرض. كان ذاهبة لتملأ البلاص. بالمياه المعين من الطلمبة الوحيدة فى العزبة.

رفعت عينيها، لأن نظرها كاد أن ينكسر من كثرة النظر فى الأرض. شاهدت شكظور وهو ينطط الفحل على البقرة.

قالت فى سريرها:

- كفاية عليه كده.

سألت نفسها

- طب وأنا

قال عرابى الحاج، بعد أن مرت عليه فـى طريـق العودة. أدى الراجل فلق والمرة نقاية. تبقى العيال حـاتيجى وراء بعضها زى العفاريت.

تسمع حسد الناس لها عليه و تسكت. تبلغ الكلام ولا تنطق. ولكنها تقول فى الليالى الطويلة..

- منظرع الفاضى.

بعد ليالى المناهدة والفرهدة والتعب. رفسته بقدمها فى محاشمه. وعندما كانت ديوك الفجر تؤذن. قالت له:

- كان عند أبويا اللقمة والهدمة

أكملت وهى ترتدى ملابسها:

- كان ناقصنى ايه؟!

أحس انه ينزل من بئر بلا قرار. ويغرق فى بحر ليس له قاع وفى الليالى التى جاءت بعد ذلك، لم يبق له معها سوى السمر. يسمع منها وتحكى. ولكنها طهقت من طحن الكلمات. كرهت حتى الكلام معه. كان شكور لا يمل الكلام المكرر والمعاد عن طلوقته. وعن مسرات العزوبية التى ولت، ومتع الحياة منفرداً التى أخلت مكانها للزواج.

بدأت عيوب الزواج تظهر امام عينى المرأة التى حكت من سنوات الحل والترحال على أرض بيتها آتية من سنوات العزبة. كانت تقول له. أن من يسمعه يتكلم هكذا. لا بد وان يتصور أنها - أىاسرار - يتمشى فى العزبة، بعد أيام وربما شهور، وهى تجر وراءها وتحمل على كتفيها زريبة العيال الذين، لا بد سيحنون رأسه ورأسها. نحو الأرض.

تنظر حولها، وتسابق الدموع الكلمات. وهى تقول:

- فين يا حسرة

ما بين الأرض والأرض، أرض. الحقول، الزرع، المهرة، الرهوان. عين بحر النيل القريب. كانت تراه. تشاهده. فكر أن يتوقف عن المحاولات التى لا جدوى من

ورائها. لكى يفعص عين بحر النيل أولاً. ثم يوانصل محاولاته بعد ذلك.

تنبت فى حبة قلبه، أصوات ينصت إليها، يشعر أنها صهيل الجياد المربوطة. كانت رحابة الأماكن التى يجرى فيها التور. تبدو له مثل الأفق. كان يشعر أن أى شئ فى هذا العالم. أجمل من اكراهات الجسد الليلية.

يرى خطى الضوء الصباحية جيداً. ثم تأتى الشمس، تشق طريقها اليومى صاعدة الى قلب السماء. وفى لحظات الغروب. تبدأ فى المشى، وهى تفك شعرها.

ساعة المغارب. يبدو الأفق وكأن يداً هائلة قد امتدت وصبغته كله بلون ارجوانى. تغطس الشمس فى الأفق الغربى. مخلفة وراءها وهج وقيظ اليوم الذى ولى. تتشابك أزهار الأيام مع كل الليالى.

والعائدون من الغيطان الى البيوت. يبدو غبار الحقول معلقاً بثيابهم، والإرهاق يحتل وجوه الناس والتعب معلق برموش أعينهم يرتعش قلب شكور لقد جاء الليل. جاء وقت الضنى. وقت التعب بلا نهاية وبدون فائدة.

فى الصباح. عندما كان يفرك عينيه اللتين كانتا فى لون كاسات الدم. طبطبت عليه بحنان:

- لزمن حكيم يكشف عليك يا خويا.

شكشك الدمع عينيه، واقشعر بدنه. وأدرك انه لم يعرف بعد البنت أسرار. بندرية أو غجرية أو غرباوية. كل هذا لا قيمة له. المهم أن يطوق معها على حكم البر حتى يروض المهرة ويلجمها ثم يركبها. ثم يغرس سن محراثه فى الأرض العفية. ويضع بذوره ويرويها ويسمدها بالسباخ، ويلقم لها الكيماوى وينتظر الحصاد.

أن لم يفعل هذا كله، فالموت أهون عليه. كانا يتجولان فى تلك المسافة بين النفور والحفان. بعد يومين. سألته وهما يزردان زردة شاى الصباح عن حكيم فى هذه النواحى، يفهم فى الخلفة.

وضع يده على فمها، كان شفتيها رطبتين ونديتين، وكانت أصابعه ترتعش وكأنها أمسكت فيها الحمى، منعها من أكمال ما تود قوله: جاس بيده فى خدها. تحسس الزغب الأصفر الخفيف فى وجهها. ونزل الى لغدها الجميل. كانت

أصابعه ترتعش. وكان لحمها كفرخ حمام ينتفض تحت لمسات وليفه. دارت أصابعه حول تفاحة آدم التى يغطيها جلد ناعم. خافت منه. أبعدت يده:

- وماله الحكيم

شخط فيها:

- حتة عيل يساوى الجرسة

لم تفهم كلامه. شوح فى وجهها:

- الفضيحة يا وليه.

قالت له:

- البيوت أسرار

أكملت:

- وأنا سترك وغطاك

جاشت نفسه بمعانى كثيرة. فكر أن يقول لها، أن كل الأبواب مسكوكة ومصوجرة على سعادات بسيطة وأفراح هشة.

ردت عليه:

- والمجالس أمانات

لم يصدقها:

- كان زمان وجبر

زعقت فيه:

- هوه الحكيم حايركب مكيرفون ويلف ع الموالد ويحكى.

مطوح الأمر،- وكل يوم جر وراءه يوماً آخر. وكل ليلة شدت التى وراءها. إلى أن قالت له ذات مساء.

- الظاهر انك مستكفى باللى بيعمله التور بتاعك.

ماتت النظرة فى عينيه. فكر أن يذبحها ويشرب من دمها ويشفى غليله. خافت من نظراته. طهقت من حالها. لطمت خدودها. وقالت:

- طيب وآنى ذنبى إيه؟

خرج من البيت. مشى، سمع إمرأة تقول لامرأة:

- باب النجار.

توقف ونظر إليها. طق الشرار من عينيه. فكر أن يمزقها. يجعل أكبر قطعة منها فى حجم حبة العدس. طق شعر رأسه. خاف من الفضيحة.

وفى آخر ليلة. نام معها. قامت معه بآخر محاولاتها، وعندما غرق فى عرقه. عرت جسدها. فشاهد رسومات جميلة- يراها لأول مرة - على يديها وثدييها. وبين هذه الرسومات. كان هناك نقش الحنة. ما يزال كما هو. أن هذا معناه أنها لم تستحم من يوم الدخلة. وهل هناك جرسة أكثر من هذا؟!

حاول أن يطبطب عليها. جاء صوتها حاداً:

- غلب حمارك؟!

استجمع آخر ما لديه من عزم:

- نور شكور عمره ما يغلب

هى قالت الحمار. لم جاء التور على باله:

- ايه اللى دخل التور!

لم يرد. قالت:

- ما تجيبه يعمل بدالك

تباهى أمامها.

- من غيرى يغرق فى شبر مية. أنا اللى بأعمل له كل حاجة جاءه الصوت الذى كان يخشاه:

- باين عليك نخلة دكر.

كاد أن يضع إصبعه فى عينيها:

- فشر، سبع صنايع والبخت ضايع

- كفى من بقك

كاد يلهث:

- العيب منك

ضحكت فى سخرية:

- ورينى، وبعدين نتكلم عن العيب

أحضر سكيناً، فلم تشعر بالخوف. أمسك بها.

قال لها:

- التور بينط بأمرى.

- دى وحفضناها.

لم يتكلم. قالت:

- التور ينط بدالك. يا ريت كنت بقرة وريحتك

شقت قميض نومها:

- ودا كان مكتوب لى فين؟

كان الليل فى وسامه الأرض الحبلى و النجوم تغرص سن محاريثها فى عتمته. والصمت يملأ عتبات البيوت ومغانورها وشبابيكها. كان الصمت أكثر صمتاً. كان الوقت يابساً.

رأى جسدها المهول. شعر بتقافز قلبها على صدرها. وارتفاع نهديها. عض بأسنانه على لسانه حتى تذوق طعم دمه.

- ١٧ -

سألوا عبد الشكور عن أحب أبنائه إليه. فقال: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يعود، والمريض حتى يشفى، والمجنون حتى يؤوب إليه عقله الشارد منه.

وهلى كان له أولاد من أصله؟!

يرد عرابى الشايب: الجعان يحلم بسوق القمح

أشار عبد الشكور لاسرارها وهما فى الطريق من المولد الى العزبة شاور لكتفه الأيمن. وقال لها: الكتف: دا زاد. واشار للكتف الأيسر: والكتف دامية. داس على الأرض: أن ما شالتكيش الأرض. أحطك جوه رموش عينيه. أقسم لها انه سيقطع من قلبه وكبده ويطعهما.

كانت العزبة قريبة. أصبحت على مد الشوف. حكى لها عن البيت الذى ستسكن فيه. مبنى من طوب من نوع آخر. غير الطوب الذى يبنى به خلايق الله بيوتهم. بيت عبد الشكور المهجور، ليس للفرح مطرح من سنوات طوال مضت.

قالت له أسرار:

- الناس أكلت وشى.

اشاح بوجهه الى الناحية الأخرى:

- انصبى لهم أى مولد. مش حاتغلبى.

تنهدت:

- الكدب ما يجبش همه

قالت:

- الكدب مالوش رجلين

تساءلت: هل سابت الموالد لكى تسكن بيت العياط؟ لم يبق أمام أسرار إلا أنها تهج وتطفش من بيت عبد الشكور ومن العزبة كلها فى انصاص الليالى. لم يهوب النوم نواحى عينيها منذ أن جاءت الرى العزبة. فكرت أن تلملم خلقاتها. حتى تكون جاهزة للهروب.

ولكنها أجلت الهججان. لأن أمه قالت لها. وهى تودعها. لكى تبدأ مشوارها مع شكور.

- الرضا بالمقسوم عبادة يا بنتى.

هل دارت معها الحكاية بالمقلوب؟ الكلام يشلب وما من غلبها. وان كانت تشعر أنها تلملم جرحها فى الكلمات. كان القرف قد وصل الى ملاءة السرير وقميص النوم. ومخدة الصبابة وخددية الوجد.

شكور كانت حكايته حكاية..

لم تعد ركبتاه قادرتان على حمله. حتى يهرب من الأسئلة، التى تلاحقه، عن الإبن الذى لم يأت. قال لهم. أن النار لا تحرق سوى من يكبشها. تاه شكور عن ليله، وتاه ليله عنه. بدا لهم انه شايل ومستكفى. شايل أكثر من حمله. ولكنه كان قليل الكلام خوفاً من الفضيحة بجلاجل التى تهدده فى كل لحظة تمر.

وحتى يجد اجابة على سؤالات الناس. سأل هو نجوم الليل. لم عزت العافية. ولكن الليل لم يرد عليه. أعطاه ظهره ووقف الليل أمامه عريض ومعتم. وفى العزبة لم يتركه أحد فى حاله. ثرثروا. قعدنا نقول بكرة الجواز يخليه زين. الجواز خلاه شين.

قالوا: الناقة تخلى الجمل يبرك وينخ. البندرية جابت شاله الأرض. جاءت أسرار فغارت خطوط وجهه. كأن الزمن قد محاها ومسحها بأستيكه مستوردة. وعندما يتحدث. يبدو وكأنه يتحدث ولا يتحدث فى نفس الوقت. تتحرك شفتاه فلا تنطقان. تحاول العزبة أن تستمع الى ما يقوله فلا يصلها اى صوت منه فتضحك من حاله. والعزبة نادرة الضحك

والابتسام. اما دموعها فهى مثل مياه بحر النيل الذى تنام على شاطئه ولذلك فهى حاضرة دائماً.

لم يعد شكور قادراً على أن يصلب طوله. أو يشد حيله. لكن رجلاً عاقلاً نضحه قائلاً: عندما تهب الريح. ارخى قلوعك وطى لها لغاية ما تعدى. أزمة تفوت ولا حد يموت.

أشار نواحى بحر النيل. وحكى أن الناس التى تعيش بين الماء والريح والسماء والأرض هم الذين علمونا هذه الحكمة.

- ١٩ -

مسك الختام عند عرابى هم بكثير من تحبيش المداخل والبدايات. وهو لايقول أبداً: توته فرغت الحدوته وانما يختم كل حكاية ببداية حكاية جديدة قد يقولها فى الغد.

وفى بعض الأحيان. يتصرف الذين حوله وهو يحكى ولا ينتبه لإنصرافهم. بل ويناغش بعضهم ويهارفهم وكأنه لم يكتشف أن كل واحد منهم راح لحاله وانه يكلم نفسه

مثل المجانين. الذين يمرون عليه. يقولون انه هو الذى جابه لنفسه. احتار عقله الذى جعله يهلوس هكذا.

يقول عرابى الشايب أن آخر من صع الى السماء فى السنة الفائتة اكتشف انه سبحانه وتعالى يحاول أن ينسى الناس. وصلت متاعبهم الى سابع سماء. استجارت منهم حتى الشياطين. أمسك قليلاً من التراب. ورماه نواحى الأرض. فتحول الى غبار يحجب الصخب القادم منها ولا يجعله يرى ما يجرى عندهم. وانه جل شأنه فى علاه يحاول أن ينسى انه خلق الإنسان ذات يوم ومنحه الأرض و الكواكب التى حولها.

يقول عرابى: يا ويلنا وسواد ليلنا.

يؤكد أنها من علامات الساعة.

يتفق أهل العزبة حول ما جرى لعبد الشكور. ولكنهم عندما يصل الأمر الى التور يختلفون. البعض يكذب هذه الحكاية. يحلفون على المصحف الشريف الذى يقصف عمر الإنسان ويخطفه من الدنيا. أن حلف به بالباطل. أن التور جرى فى براح الغيطان. نط المساقى بعد أن كان ينط على

بقر العب. وقفز من فوق المصارف، بعد أن كان يقفز لكى يجد نفسه راكب فوق بقرة.

فى أحد القفزات. طار وحلق فى الجو. ومن ساعتها وهو يحلق فى سماء الله العالية. قدرة القادر على كل شئ. أنبتت له جناحين فى جبينه وكلما حركهما كبرا. حتى أصبحا يغطيان على العزبة بما فيها الجرن والشونة والدوار وبراح الغيطان حجب حتى الشمس عندما طلعت. وظل سابحاً فى سماء الله العالية حتى اختفى عن الأنظار. والناس تنظر وتبسمل وتحوقل ويقولونه: قادر. قال للشئ كن فكان.

لف شكور على دور العزبة داراً داراً إلى إن وصل الى بيته. خبط الباب. بعزم ما به. خافت منه أسرار. لأول مرة. لم تفتح له الباب. كلمته من ورائه. سألته: ماذا يريد. قال لها انه يطلب منها فتح باب بيته. ردت عليه انه ليس بيته. ولكنه بيت صحابات العزبة.

قال لها انه أحضر معه لها ما تريد منه. ومالا يقدر أن يقدمه لها. معه الشئ الذى طيرت النوم من عينيه بحثاً عنه. استغاثت أسرار بالجيران. صوتت. انخلع الصوات من حبه قلبها المرعوب، حلاوة الروح جعلت صوتها الحياتى

يجمع أهل العزبة. لطمت خدودها - يقول الشبان - أنها مزقت قميص نومها. الذى كانت تنام به على اللحم من الرعب. عندما رأت السكين من خرم فى الباب، وعليه نقطة من الدماء.

يتحسر الشبان - وهم يحكون - لأنهم لم يتمنكنوا من معاينة اى جزء من جسدها المهول. فقد كان باب الدار مغلقاً بالضبة والمفتاح من الداخل. وقد عرفوا حكاية تمزيق قميصها من نسوان العزبة اللاتى دخلن الدار عليها بعد ذلك.

يؤكدون أن شكور حاول أن يكسر الباب بكل ما عنده من قوة. وان أسراسر وضعت كل الكراكيب التى فى البيت وراء الباب. وان شكور مشى. ترك العزبة وراءه وأسلم نفسه للغيطان وانه لحق بالثور. وفى نفس لحظة طيران الثور. شد معه شكور الى سماء الله العالية. وإن كانوا يقولون أن السكين والحبل وقعا منه على الأرض لحظة طيرانه مع التور.

غير أن أحداً لم يتمكن من العثور على السكين، باعتباره الأداة المستخدمة فى الجريمة. ولا على حبل

الطلوقة. فهو جسم الجريمة نفسه. كما أن عدم العثور على شكور أو الطلوقة جعل الأمر يزداد غموضاً يوماً بعد يوم.

ـ ٢٠ ـ

جاء ضابط النقطة الثابتة من نكلا العنب ومعه عساكره. وجاء بعده وكيل النيابة، الذى حضر من المركز فى إيتاى البارود. احتل رجال الحكومة العزبة.

والبنت الكبيرة. ما أن عرفت بما جرى للتور من عبشكور الأواب جزم لا بد وأن تبلغ الحكومة. وهى تتصرف معه. التور ثمنه الشئ الفلانى. وما كان يدخله يفوق العائد من الجرار. وما تدره ماكينة المياه. وثمن بيع جنينه الموالح.

أن التور يدخل قرشاً بصفة دائمة. ينفقن منها على الزراعة. هذا الثور يختلف عن أى تور آخر. منذ أن وجدت عزبة الستات حتى الآن.

قال أهل العزبة أن البنت الكبيرة تحاول أن تنتقم من شكور الذى طار من يدها. بعد أن كانت قد ولفت عليه.

قدمته له النعمة ولكنه بطر عليها فقررت أن تجعله يدفع الثمن غالياً.

احتار الضابط ماذا يفعل. لا شكور له وجود. ولا التور. قضية غريبة. لا الجانى موجود، ولا المجنى عليه له وجود، لم يجد سوى شهود اثبات يسدون عين الشمس وإن كانوا قد اختلفوا فى تحديد مصير التور ومصير شكور وكادوا أن يمسكوا فى بعضهم من باب اثبات أن كل فريق هو صاحب الرأى الصادق.

المجموعة التى قالت أن التور، صعد الى السماء يجر خلفه شكور. أكدت للضابط. أنهما - التور وشكور - سيعودان مرة اخرى الى الأرض، طال الوقت أم قصر. ولكن متى؟ الله أعلم ورسوله والمؤمنين.

أما المجموعة التى أقسمت أن التور نزل الى الترعة. وشكور وراءه. أقسمت انهما سيخرجان من الماء. أن علاجلاً أو آجلاً. أما أين ومتى يكون الخروج من الماء؟ فعلم هذا عند علام الغيوب وحده.

ولكن يحافظ وكيل النيابة على حق ومال، الأوانس أو العوانس صحابات العزبة. قرر التحفظ على بعض متعلقات شكور. ولهذا اتجهت الزفة الى بيت شكور محظية تستعد للرحيل، جمعت خلقاتها فى بقجة صغيرة. وكان مشغولة بعد الأيام على أصابعها لتعرف فى أى مولد يمكنها العثور على اهلها الآن. حتى تسافر لهم.

واحدة من بنات الحاج آدم الميت. قالت أنها تستعد للهروب لكى تقال قتال القتلة فى مكان بعيد عن العزبة. طلبت من رجال الحكومة أن يمسكوها حتى لا تهرب.

قال رجال الحكومة أنها لم تفعل شيئًا حتى يرمونها فى السجن وأن الجريمة شخصية. ما فعله شكور هو الذى يحاسب عليه. أقصى ما يمكنهم فعله هو أن تبقى فى البيت مع أشياء شكور لحين عودته. هذا أن عاد. فالبيت بيت صاحب العزبة نفسه. و هكذا اتلطع على باب البيت عسكرى. وظهر البيت وقف عنده - عسكرى. ومع مرور الوقت تم الاستغناء عنه.

وعندما كانت محظية تذهب الى الترعة لغسل المواعين. كان يقف بالقرب منها عسكرى. وان خطفت

رجلها الى الطلمبة لتملا المياه المعين لعمل زردة الشاى مشى وراءها عسكرى. فى كتفه بندقية. يبقى هكذا فى المراوحة والمجية. وراءها مثل ظلها. قال الناس: ناقص يروح معاها الغيط وهى تعمل زى الناس.

ثلاثة عساكر. كل واحد وردية. يأكلون من شكمة الستات بنات الحاج الميت. والعساكر يختارون الأكل الذى يلد عليهم. ويرفضون الأكلة التعبانة الناشفة ويعملون حساب محظية معهم فى الأكل.

كل هذا وشكور لا حس ولا خبر. الى أن ضاقت بنات صاحب العزبة بهذه الحكاية. قلن انهن لا يردن العساكر. ولا أى شئ من سيرة شكور وانهن يحتسبن أمرهن عند الله.

لكن الجديد فى الأمر أن محظيه. قالت أنها لم تترك البيت. فهى فى انتظار عودة زوجها. والضابط قال أن صحابات العزبة يمكنهن أن يتنازلن عن حقهن. اما حق الحكومة. فمن يملك التنازل عنه سوى الحكةمة نفسها؟

قالت العكسر: من ليس قد الشكوى. لم يشتكى؟ وهكذا بقى الأربعة. العساكر الثلاثة ومحظية. يأكلون ويشربون ويتكرعون من قلب صحابات العزبة. أما عبد الشكور والتور. فمنذ أن أختفيا. لم يعرف لهم أحد أثراً بعد ذلك أبداً.

من يومها، ما أن يسافر أحد أبنا العزبة الى البندر، ويعود حتى يكون معه حكاية عن شكور. يقول انه رأى شكور بعد أن تطوع فى الجهادية، لكى يدافع عن البلد، وينسى هناك ما جرى له فى العزبة، وانه قام ببطولات لا يقدر عليها أحد. وظل يترقى حتى أصبح ضابطاً كبيراً.

فى أوراق الحكومة لا يجب أن تبقى ثغرة واحدة مفتوحة أو سؤال دون إجابة. والطلوقة أصبح له ملفا عند بوليس، وفى الملف أسئلة لم يعرف أحد كيف يجيب عليها. هل ولد هنا فى العزبة. أم تم شراؤه من أحد أسواق البهايم. وبكم تم الشراء. وما هى قيمة ثمنه الآن أنجرى بيعه فى الأسواق؟

الغريب أن أحداً فى العزبة، لم يكن يعرف أصل وفصل التور ولا وزنه ولا ثمنه. كل سؤال يقولون أن اجابته

عند شكور. فهو وحده الذى يعرف. سره مع شكور ومن اين لهم بشكور الآن. لو كان موجوداً، ربما لوجد معه التور.

بمرور الوقت، بدأت محظية تشتاق لشكور، لم تحك لأحد أبداً ما كان منه، ولا السبب فيما جرى لـه. وقبـل أن يستدير العام الأول على اختفائه مع التور. فكرت أن تقيم مولداً فى العزبة. ضرب الناس كفاً بكف، مولد لواحد غائب. مولد لشخص لم يركعها فى حياته كلها. وأسرار قالت أن نصف الموالد التى تقام فى البر إنما تقام لأولياء غير موجودين. لا يعرف الناس سوى حكاياتهم فقط.

لا يعرف أحد فى العزبة أن فكرة المولد. كانت وسيلتا لكى يحضر أهلها. ويبلطون فى الخط ويقيمون فى البيت. ويأكلون معها واروطه العساكر الى أن يحضر عبد الشكور. أو ربما عند حضورهم يأخذونها معهم بالقوة.

وعندما تكلمت عن المولد، احتار الناس. هناك من تحمس للفكرة. ولكن الذين رفضوها خافوا أن يعبروا عن رفضهم هذا بكلمة واحدة.

والعساكر الثلاثة فى أول أجازة حصلوا عليها. عاد كل منهم ومعه اهله وناسه وزوجته وأولاده حتى لا يشعرون بالغربة بسبب العمل فى العزبة. فالاستقرار فى العزبة أفضل من البهدلة والعيشة الفردانى، ولأنه لم تكن هناك بيوت خالية فى العزبة، كل عسكرى تصرف. وطوبة فوق طوبة يصبح هناك بيت صغير ومحندق.

ثم خلعوا البدل الميرى، وسلموا البنادق للسلاحيك وأصبحوا من أهل العزبة. وعادت العزبة الى وسنها المعتاد. لم تكن تستيقظ سوى على حكايات العائدين عن شكور والتور.

يحلف العائدون على المصاحف. بأنهم شاهدوا شكور. مرة رئيسًا لمدينة. وأخرى مأموراً لمركز وثالثة شيخ طريقة ورابعة صاحب شركة وخامسة شيخ منسر يفرض اتاواته على الجميع.

أما أماكن رؤيته فهى تختلف. مرة فى الصعيد الجوانى، وأخرى فى القاهرة. وثالثة فى الأسكندرية. تختلف الحكايات فى التفاصيل. ولكنها تتفق فى أمر واحد. أن شكور فيها جميعًا فردانى. ليس له ما يؤنس وحشته أبداً.

كانت العزبة قد نسيت شكور وطلوقته ولا تفتكره إلا عندما ترى احد العساكر الثلاثة. أو الذين كانوا عساكر. أو عندما يمشى فيها واحد من طرفه.

ذات صباح، حضر من قال انه رأى شكور ومعه الطلوقة. يحومان حول العزبة، من بعيد لبعيد:

- شكور... لسه فاكر

- دا زمانه بقى مكحكح. ماش على تلاتة.

حلف الذى قال انه شاهده، أن شكور لم يكبر لحظة واحدة عن الوقت الذى ترك فيه العزبة. لم يكبر يوماً واحداً. ربما يكون قد صغر.

أخذ الناس وذهبوا الى المكان الذى شاهد فيه شكور. لم يكن هناك أحد.

ولكن الحكاية الأخيرة. جعلت محظية، التى رفضت الزواج من كل الذين تقدموا لها، تبدأ فى بناء مقام عال. للشيخ عبد الشكور. و الناس تنظر إليها وتضرب كفاً بكف. وتقول لك من يمر عليها...

- المولد السنة الجاية بإذن واحد أحد.

- يا عالم من يعيش

٢٩٩١/٨/٣